مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق

الفيزيائي المجمعي

الدكتور عبد الرزاق قدورة

١٣٤٧-١٤٢٨هـ

١٩٢٨-٢٠٠٧م

تأليف

الدكتور أحمد الحمري

١٤٣٩هـ-٢٠١٨م

الفيزيائيّ المجمعيّ

الدُّكتور عبدُ الرَّزاق قدُّورة

مجمع اللغة العربية بدمشق

كل الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ – ٢٠١٨م

مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق

الفيزيائي المجمعي

الدكتور عبد الرزاق قدورة

١٣٤٧- ١٤٢٨هـ

١٩٢٨- ٢٠٠٧م

تأليف

الدكتور أحمد الحصري

١٤٣٩هـ- ٢٠١٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

الدكتور عبد الرزاق قدورة

رحمه الله

١٣٤٧-١٤٢٨هـ / ١٩٢٨-٢٠٠٧م

فهرس

تقديم ٩

مقدمة المؤلف ١٥

الفصل الأول

حياة الدكتور عبد الرزاق قدورة

- الدكتور قدورة: نشأته وتحصيله الهندسي ١٩
- الدكتور قدورة موظفًا قبل فرزه إلى الجامعة ٢١
- الدكتور قدورة محاضرًا في كلية العلوم ٢٢
- الدكتور قدورة موفدًا لتحصيل شهادة الدكتوراه ٢٦
- الدكتور قدورة مدرسًا في كلية الهندسة المدنية ووكيلًا ثم عميدًا لها ٢٨
- الدكتور قدورة مجمعيًّا ٣٤
- الدكتور قدورة وكيلًا ثم رئيسًا لجامعة دمشق ٣٦
- الدكتور قدورة مديرًا عامًّا مساعدًا للعلوم في منظمة اليونسكو ٣٩
- الخاتمة ٤٤

الفصل الثاني

الدكتور عبد الرزاق قدورة بأقلام أصدقائه ومحبيه

- كلمة الأستاذ المهندس وجيه السمان ٤٧
- عبد الرزاق قدورة: سفير سورية في المحافل العلمية
(مقابلة مع الدكتور عبد الله واثق شهيد) ٥٥

- الدكتور عبد الرزاق قدورة

(من حديث للدكتور موفق دعبول) ٥٨

- الدكتور عبد الرزاق قدورة: بعض سجاياه وشيء من الذكريات

(الدكتور مكي الحسني- أمين المجمع) ٦٢

- سلامات ـ عبد الرزاق قدورة العصامي

(الأستاذ نصر الدين البحرة) ٦٧

الفصل الثالث

مقتطفات من آثار الدكتور عبد الرزاق قدورة

- كلمة الدكتور قدورة في حفل استقباله عضوًا في مجمع اللغة العربية ٧٣
- كلمة الدكتور قدورة في افتتاح المؤتمر الأول للكتابة العلمية باللغة العربية ٨٣
- قمم العلم في عام ١٩٩٤ في أعين مجلة سيانس ١٠٤
- اللغة العربية ومصطلحات العلم الحديث ١٣٠

الفصل الرابع

وقائع حفل تأبين الدكتور عبد الرزاق قدورة

- كلمة الدكتور مروان المحاسني نائب رئيس مجمع اللغة العربية ١٤٥
- كلمة الدكتور وائل معلا رئيس جامعة دمشق ١٤٩
- كلمة الدكتور عبد الله واثق شهيد أمين مجمع اللغة العربية ١٥٢
- كلمة الأستاذ عبد القادر قدورة ١٦١

* * * * *

تقديم

مروان البواب

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق

الأستاذ الدكتور عبد الرزاق قدورة – رحمه الله – عالـمٌ فيزيائي، وعضوٌ فـي مجمع اللغة العربية بدمشق، جمـع إلـى نبوغـه فـي الفيزيـاء تضـلعه مـن العربيـة تدريسًا وتأليفًا وترجمة، فكان برهانًا آخر على أن العربيةَ هـي لغـةُ العلـم والأدب والثقافةِ والحضارة فـي آنٍ معًـا، داحضًـا مـا يَزعمـه المُشَـنِّعون أنهـا لغـةٌ عـاجزةٌ قاصرة، وأنها لا تصـلح لمواكبـة التطـوُّرات السـريعة فـي المكتشـفات الجديـدة والمخترعات الحديثة والإبداعات الصناعية والابتكارات العلمية.

إن دعوى عجز اللغة العربيـة عـن مسـايرة ركـب الحضـارة المعاصـرة هـي دعوى بغير دليل، ولو أن أصحابَها عَرَفوا مزايا هذه اللغـة الشـريفة وخصائصَـها، لما رَمَوْها بهذه الاتهامات، ولما نَعتوها بتلك الأوصـاف! وحسـبنا أن نـذكِّر بـأن العربيةَ استطاعت في وقتٍ يسير قبـل نحـو ألـف سـنة أن تسـتوعب كـلَّ صـنوف المعرفةِ التي ابتكرتْها الأممُ المتاخمةُ للجزيرة العربية كـالفرس والـروم، والأمـمُ البعيدةُ عنها كالهنود والصينيين. وصار ما كتبه المفكِّرون والعلماءُ العربُ بلغتِهم العربيةِ منذ القرنِ الثالث الهجري، نبراسًا استضاءت به شعوبُ العـالم. وحَملـتِ العربيةُ بعدها لواءَ العلم والحضارةِ والأدب قرونًا عديدة.

* * * * *

انضمّ الدكتور عبد الرزاق قدورة إلى مجمع اللغة العربية خلفًا للأمير جعفر الحسني الجزائري، وكان انضمامه سندًا كبيرًا لتحقيق رسالة المجمع النبيلة المتمثلة في المحافظة على سلامة هذه اللغة، وجعْلِها وافيةً بمطالب الآداب والعلوم والفنون، وملائِمةً لحاجات الحياة المتطوِّرة.

وأفاد المجمع من ثمرات علم الدكتور قدورة، مثلما أفاد من ثمرات علم أعضائه السابقين، ويفيد من أعضائه اللاحقين، الذين تنوَّعت اختصاصاتهم وكمَّل بعضُها بعضًا في العلوم الإنسانية والتطبيقية على حدٍّ سواء؛ في الطب والهندسة، واللغة والأدب، والفلسفة والتاريخ والتربية، والفيزياء والرياضيات، والزراعة والنبات، وعلم الحياة والاجتماع...

* * * * *

لقد انعقدتْ خناصرُ أهل العلم على خصال الدكتور قدورة الحميدة، ومزاياهُ الفريدة؛ فمما قاله الدكتور مازن المبارك فيه: «ما عرفتُ أحدًا بلغ إعجابُه بمن عرفه وتقديرُه له مثلَ ما بلغ إعجاب عارفي الدكتور قدورة وتقديرهم له. وما عرفتُ أحدًا جمع في نفسه ما جمعه الدكتور قدورة من صفات، عمقًا في الفكر وصفاءً في النفس، وطهرًا في القلب... جاءته الدنيا بكلِّ ما فيها، فأعطاها كل ما يستطيع، واكتفى منها بالكفاف، وزهد بكل ما أعطته من مغريات ومباحات! كان لا يبالي إذا التزم الحق، ما يقوله الخَلْق... كثير التأمل، قليل الكلام، عقله وراء لسانه. تجلس إليه فتفيد منه أدبًا في السلوك، وإشراقًا في الروح. ترى كلَّ ما يصدر عنه، في جميع المواقف، ابنَ الطبع، يصدر بصدق ولطف وتواضع، لا تكلّف فيه ولا تصنُّع»، ووصَفه أستاذُه المهندس وجيه السمان بأنه «رجلٌ دأبَ طول حياته على الكدِّ والتعب في طلب العلم على النسق الذي نجده في سِيَر علمائنا الكبار الذين تعاقبوا في العصور الزاهرة للإسلام»، ووصفه الدكتور

مروان المحاسني بأنه «رجلٌ فذٌّ في علمه وخُلُقه واستقامته»، ووصفه الدكتور عبد الله واثق شهيد بأنه «كان خيرَ سفيرٍ لسورية في المؤتمرات والمحافل العلمية العالمية»، ووصفه الدكتور مكي الحسني بأنه «إنسانٌ لطيفٌ جدًّا، طيِّب العِشْرة، واسع الثقافة، وهو إلى ذلك شديد التواضع»، ووصفه الدكتور أحمد الحصري - مؤلِّف هذا الكتاب - بأنه «جدير بأن يُتَّخذ قدوةً لمن يبتغي كمال العلم والخلق»، ووصفه الأديب السوداني الطيب صالح بأنه «وَرِعٌ بلا تكلُّف، صافي الذهن، يملك قدرةً هائلةً على التعلُّم. وجهُه يَشِعُّ بنور القرآن، وحركاتُه وسكناتُه وأسلوبُه في العيش كأنها أصداءٌ لآياتِ القرآن المبين. رجلٌ فَذٌّ يُذَكِّرُ بعلماء المسلمين في عصور التنوير الأولى». ولو رحتُ أعدِّد نظائرَ هذه الشهادات لطال بنا الحديث، ولكنَّ التمثيل يغني عن التفصيل.

* * * * *

ومما يدلِّل على كريمِ خصالِ الدكتور قدورة، ودماثةِ أخلاقه، وحسن سيرته، وشِدَّتِه على نفسه، أنه:

- كان رؤوفًا بالطلاب حريصًا على تحسين إعدادهم للحياة علميًّا وأخلاقيًّا واجتماعيًّا. يقدِّم لهم النصُّح والإرشاد في أمورهم العلميةِ والاجتماعية.
- عندما كان رئيسًا للجامعة، لم يُحط نفسَه بما اعتاد بعضُ أصحاب المناصب إحاطةَ أنفسهم به، وكان بابُه مفتوحًا للجميع.
- كان كريمًا وفيًّا، وكان يُهدي إلى أصدقائه وهو في فَرنسا، ما يَجِدُّ نشرُه من الكتب التي يقدِّر اهتمامَ كلٍّ منهم بموضوعاتها.
- كان لا يَستعمل في تَنَقُّلاته ضمن المدينة وسائطَ النقل مهما كان الطقس حارًّا أو باردًا، ويأبى أيَّ عرضٍ مِمَّنْ يَلمحُه من المعارف والأصدقاء في الطريق لإيصاله إلى حيثُ مبتغاه.

- كان مُرْهَفَ الحِسّ، شديدَ الانفعال بما يَخْدِش كرامتَه، ويَتجنَّب مَن أساء إليه.
- كان شديدَ الاحترام لمواعيده، حريصًا على الحضور في الموعد المحدَّد تمامًا.
- كان يخصِّصُ أيامًا من الأسبوع يَستقبل فيها زائريه في ساعاتٍ محدَّدة. وللرياضة في نظام حياته حقٌّ معلوم، وأغلبُ الظنِّ أنه كان لا يأكل إلا مرةً واحدةً في اليوم.

* * * * *

تشرَّفتُ بلقاء الدكتور قدورة مرتين:

أما الأولى فكانت في أوائل سنةِ تسعينَ وتسعمئةٍ وألف، في مدينةِ بنغازي في ليبيا، بمناسبة انعقاد المؤتمر الأول للكتابة العلمية باللغة العربية.

كان عددُ المشاركين في هذا المؤتمر يربو على المئتين. وفي اليوم الأخير من المؤتمر اجتمع المشاركون خارجَ الفندق لركوب الحافلات التي ستقلُّهم إلى حيثُ كانت مواقعُ المجاهد عمر المختار. فراعني في هذا الجَمْع منظرُ رجل في الستين من عُمُرِه يَلْبَس قميصًا أبيضَ، مُشَمِّرًا عن ساعدَيْه، مع أن الطقسَ كان باردًا نسبيًّا. رأيتُه وهو يَتَنَقَّلُ بينهم بحيويةِ الشباب ونشاطِهم، ووقارِ الشيوخ وهيبتِهم.

سألتُ عنه، فقيل لي: إنه الدكتور عبد الرزاق قدورة.

اقتربتُ منه وسلَّمتُ عليه، وعرَّفتُه بنفسي، فردَّ عليَّ السلام، وحيَّانِي وكأني صديقٌ قديمٌ لَقِيَه بعد فراقٍ طويل. فتملَّكني شعوران: شعورُ غبطةٍ وسرور، لما لَقِيتُه من حفاوةٍ وترحيب، وشعورُ فخرٍ واعتزاز، لأن شخصًا بمنْزلة طلابِهِ حَظِي بشرف لقاءِ أستاذٍ قدير، وعالم جليل. فقلتُ في نفسي: صَدَقَ من قال: كلما ازداد المرءُ علمًا وفضلًا، ازداد تواضعًا ونُبلًا.

وأما المرة الثانية، فكانت في تشرين الأول سنة تسعين وتسعمئةٍ وألف؛

أي بعد بضعة أشهرٍ من اللقاء الأول. وكان هذا اللقاء بمناسبة استقبال الدكتور عبد الرزاق قدورة عضوًا جديدًا في مجمع اللغة العربية.

كانت تلك أوَّل مرةٍ أزور فيها المدرسةَ العادلية، وكانت هذه المناسبةُ فاتحةَ عهدي بمجمع اللغة العربية. وبعد الانتهاء من مراسم الاستقبال والاستماع إلى كلمات الخطباء، توجهتُ مع جملة الحضور لتهنئة الدكتور قدورة. فسلَّم عليَّ بمودَّةٍ ومحبَّة، وأضفى على هذا السلام البهجةَ والسرور أنه مازال يذكر لقاءَنا الأول في بنغازي، فازددتُ سعادةً وإشراقًا.

لقد حَضَرْتُ ذاك الحفلَ، ولم يَدُرْ في خَلَدِي أني سأصبح عضوًا في هذا المجمع، وأني سأكون خَلَفًا لهذا العالم الجليل، غير أن إرادةَ الله تعالى شاءت أ ن تتحقَّق هذه العضوية، وأن أكون خلفًا له، بعد نحوِ عَقْدَيْن من استقباله، وسنةٍ من رحيله..

فَكَـــم لِلهِ مـــن تَـــدبيرِ أَمْـــرٍ طَوَتْـهُ عَـن المُشاهَدَةِ الغُيـوبُ

* * * * *

وبعدُ، فقد أصاب مجمع اللغة العربية بدمشق عندما كلَّف الأستاذ الدكتور أحمد الحصري إعدادَ كتاب عن حياة الأستاذ الدكتور عبد الرزاق قدورة؛ فهو من خِيرة من ينهض بهذه المهمة، لأنه أحد الذين عاصروا الدكتور قدورة وشاركوه في التدريس والترجمة واللجان العلمية.

أدَّى الدكتور الحصري هذه المهمة على خير وجه، فجَمْع مادة الكتاب من الكتب والمجلات والدراسات والرسائل والتقارير العلمية ووقائع المؤتمرات والمقابلات التلفزية، وبذل جهدًا عظيمًا في تقصِّي آثار الدكتور قدورة ووثائقه المبثوثة في المؤسسات والمنظمات والمكتبات والجامعات العربية والأجنبية.

واستطاع بعد ذلك أن يصوغ ما جمعه بلغةٍ عذبة وبيانٍ صافٍ، ليقدِّم لنا صورةً واقعيةً عن حياة الدكتور قدورة؛ أستاذًا جامعيًّا، وإداريًّا كبيرًا، وعالِمًا جليلًا.

فللدكتور الحصري خالص الشكر على ما بذله من جهودٍ طيبة في إعداد هذا الكتاب. ورحم الله الدكتور قدورة، وجزاه خيرَ الجزاء كِفاءَ ما قدَّمه للعربيةِ وأهلِها من علم وعمل.

* * * * *

مقدمة المؤلف

ليس أمتع من أن يكتب المرء عن حياة شخص شهد له الجميع بدماثة الخلُق وسعة الاطلاع ونَهَم الاستزادة من العلم. إن شخصًا بمنزلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الرزاق قدورة جدير بأن يُتَّخذ قدوةً لمن يبتغي كمال العلم والخلق. كيف لا وقد أتقن فيما أتقن عدة لغات أجنبية ونهل من العلم ما أهله لتبوؤ منصبٍ عالمي رفيع هو المدير العام المساعد لمنظمة اليونسكو في باريس.

لقد كانت رحلة حياته حافلةً حقًّا بالعطاء المتجدِّد في مراحلها كلِّها: موظَّفًا، ثم مدرِّسًا جامعيًّا، ثم وكيلًا وعميدًا لكلية الهندسة، ثم وكيلًا لجامعة دمشق، ثم رئيسًا لها، ثم عندما تولّى منصب المدير العام المساعد لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) للشؤون العلمية في باريس، وكذلك عندما صار عضوًا عاملًا في مجمع اللغة العربية.

إن الاطلاع على منجزات شخصياتٍ كهذه حريٌّ أن يكون حافزًا للأجيال القادمة كي تنهج نهجهم وتسلك مسلكهم وتنسج على منوالهم. يقول الشاعر:

وتشبَّهوا إنْ لم تكونوا مثلَهم ... إنَّ التشبُّه بالكرامِ فَلاحُ

وما من شك في أن أستاذنا رحمه الله لم يدخر وسعًا ولم يألُ جهدًا لتحقيق ما حقَّق وإنجاز ما أنجز، ويصدق فيه قول الشاعر:

وإذا كانتِ النفوسُ كبارًا ... تعِبتْ في مُرادها الأجسامُ

وإنني إذ أشكر مجمعَ اللغة العربية أن أولاني شرف الكتابة عن الأستاذ الدكتور قدورة، أجدني مشفقًا من ألا أكون على قدر مسؤولية الإحاطة بإنجازاته وجوانب إبداعاته العلمية والفكرية والإدارية جميعًا، أو الوفاء بكامل حقّه، وهو الذي غمرت أفضاله وأياديه العديد من الناس، وأنا منهم، فإليه يعود الفضل في قبولي لمتابعة دراستي في بريستول عام ١٩٦٣ في مجال الفيزياء النووية، فله مني جزيل الشكر والامتنان ما حييت.

ولسوف أبذل قصارى جهدي، فأتحرى إنجازاته قدر استطاعتي، وآمل أن يوفقني الله إلى ذلك، وما هذا إلا من باب ردِّ الجميل له، جزاه الله عنّا خير الجزاء.

دمشق ٨- ٨- ٢٠١٤

الدكتور أحمد حصري

* * * * *

الفصل الأول

حياة
الدكتور عبد الرزاق قدورة

الدكتور قدورة
نشأته وتحصيله الهندسي

ولد محمد عبد الرزاق قدورة في دمشق بتاريخ الأول من شهر تشرين الثاني سنة ثمانٍ وعشرين وتسعمئةٍ وألف، ونشأ في أسرةٍ عريقة، عُهِدت إلى أفرادها مناصب مرموقة؛ فقد كان والده الأستاذ إبراهيم قدورة ضابط شرطة مشهودًا له بنظافة اليد وحسن الأداء، وتولى أخوه الأستاذ عبد القادر قدورة منصب رئيس مجلس الشعب مدة طويلة على عهد الرئيس الراحل حافظ الأسد، أما هو فقد كتب الأستاذ نصر الدين البحرة حول نشأته في العدد رقم ٩٩٤٧ من صحيفة تشرين بتاريخ ٩-٨-٢٠٠٧ مقالًا بعنوان:

«**عبد الرزاق قدورة .... العصامي**»

أقتطف منه ما يلي:

«كان والده المرحوم إبراهيم ضابط شرطة متقاعدًا، لكنه لم يكن «فهلويًا» كما هو دارج هذه الأيام، فما كان أمامه سوى راتبه التقاعدي، ومنزل مستأجَر في شارع خالد بن الوليد. كان هذا الرجل مضطرًا أن «يرشِّد» الاستهلاك في كل شيء، لكي يمدد راتبه على أيام الشهر، وهكذا فإنه كان في تمام الساعة التاسعة مساء يطفئ الأنوار الكهربائية في المنزل جميعًا. فماذا يفعل عبد الرزاق، وهو المضطر إلى السهر حتى ساعة متأخرة من الليل لمواصلة الدراسة، والامتحان على الأبواب؟ كانت خطوط التراموای الكهربائي ما تزال عاملة على خطوط دمشق، وأطولها خط المرجة- دوما، فقطع عبد الرزاق تذكرة شهرية تخوِّله الركوب دون الدفع (اشتراك: *Abonne*).

وهكذا أمسى كلما أطفئ النور في الدار، ينسلُّ نحو ساحة المرجة، ليركب الحافلة ذاهبة آيبة، وهو يقرأ على ضوئها.» ليس غريبًا إذًا، في ضوء حرصه على الدراسة، أن يكون الأول على أقرانه في الشهادة الثانوية. وأن يفوز في المسابقة التي تقدم لها لمصلحة وزارة المواصلات والتي رُشِّح على إثرها للإيفاد إلى جامعة بروكسل في بلجيكا، حيث نال منها عام ١٩٥٢ شهادة الهندسة الميكانيكية والكهربائية.

* * * * *

الدكتور قدورة موظفًا قبل فرزه إلى الجامعة

عاد الدكتور قدورة بعد حصوله على شهادة الهندسة الميكانيكية والكهربائية من جامعة بروكسل إلى الوطن، ووضع نفسه تحت تصرف الوزارة التي أوفدته وباشر عمله فيها بتاريخ ٢٠-١١-١٩٥٢ بصفة مهندس متمرن.

ولم يمضِ وقت طويل حتى غدا في ١-١-١٩٥٥ رئيسًا لشعبة الهندسة في البريد والبرق، وما ذلك إلا لتفانيه في عمله وإخلاصه فيه، ولإتقانه للغتين الإنكليزية والفرنسية، وإلمامه باللغتين الروسية والألمانية. ثم نُقِلَ إلى كلية العلوم بجامعة دمشق بقرار وزاري رقمه / ١١٦/ وتاريخه ٢-٤-١٩٥٥.

* * * * *

الدكتور قدورة محاضرًا في كلية العلوم

باشر الدكتور قدورة عمله في كلية العلوم بتاريخ ٢٧-١٢-١٩٥٥ وعمل فيها مدرسًا مدة عامين أعدَّ خلالهما الأمالي التدريسية اللازمة للمقررات التي كُلِّف تدريسها، وأنجز بالتعاون مع زملائه في قسم الفيزياء ترجمة كتاب من اللغة الفرنسية عنوانه: ***Physique Generale et Experimentale*** لمؤلفيه بيير فلوري وجان بول ماتيو. وقد صدرت الترجمة عام ١٩٦٤ ضمن مطبوعات المجلس الأعلى للعلوم في أربعة كتب هي:

١. الفيزياء العامة والتجريبية الكهربية الراكدة - التيارات المتواصلة - المغناطيسية، الكتاب الأول، (٤١٩) صفحة.
٢. الفيزياء العامة والتجريبية الكهربية الراكدة - التيارات المتواصلة - المغناطيسية، الكتاب الثاني، (٤٣٥ صفحة) .
٣. الفيزياء العامة والتجريبية التيارات المتناوبة - الأمواج الهرتزية، الكتاب الأول، (٢٩٠ صفحة).
٤. الفيزياء العامة والتجريبية التيارات المتناوبة - الأمواج الهرتزية، الكتاب الثاني، (٢٩٥ صفحة).

وقد شارك في ترجمة هذه الكتب الأربعة الدكاترة: عبد الرزاق قدورة، واثق شهيد، أدهم السمان والمهندس وجيه السمان.

وشمل تعاون الدكتور عبد الرزاق قدورة مع أساتذة في قسم الفيزياء بكلية العلوم أيضًا ترجمة كتاب من اللغة الإنكليزية عنوانه:

The Feynman Lectures on Physics

وقد صدرت الترجمة عام ١٩٧٤ في ثلاثة كتب تحمل العناوين التالية:

١- محاضرات فاينمان في الفيزياء: القسم الأول: الميكانيك.

٢- محاضرات فاينمان في الفيزياء: القسم الثاني: الضوء والإشعاع.

٣- محاضرات فاينمان في الفيزياء: القسم الثالث: الاهتزازات والترموديناميك.

وتناولت فصولُ الكتب الثلاثة الموضوعات الآتية:

الكتاب الأول - الميكانيك

- ذرات في حالة الحركة
- الفيزياء الأساسية
- علاقة الفيزياء بالعلوم الأخرى
- مبدأ انحفاظ الطاقة
- الزمن والمسافة
- الاحتمال
- نظرية الثقالة
- الحركة
- قوانين نيوتن في التحريك
- انحفاظ الاندفاع
- المتجهات
- خواص القوة
- العمل والطاقة الكامنة
- نظرية النسبية الخاصة
- الطاقة والاندفاع النسبويان
- المكان والزمان
- الدوران في المكان ذي البعدين
- مركز الكتلة وعزم العطالة
- الدوران في المكان
- الهزازة التوافقية
- الجبر
- التجارب
- الانتقاليات
- الجمل الخطية ومراجعة

الكتاب الثاني- الضوء والإشعاع

- الضوء، مبدأ الزمن الأصغر
- الضوء الهندسي
- الإشعاع الكهرطيسي
- التداخل
- الانعراج
- منشأ قرينة الانكسار
- تخامد الإشعاع، تبعثر الضوء
- الاستقطاب
- الظواهر النسبوية في الإشعاع
- رؤية الألوان
- آليات الرؤية

الكتاب الثالث: الاهتزازات والترموديناميك

- السلوك الكوانتي
- علاقة وجهتي النظر الموجية والجسيمية
- النظرية الحركية للغازات
- مبادئ الميكانيك الإحصائي
- الحركة البراونية
- تطبيقات النظرية الحركية
- الانتثار
- قوانين الترموديناميك
- أمثلة من الترموديناميك
- المسنَّن والكلَّاب
- الصوت، المعادلة الموجية
- الخفقان
- طرازات الاهتزازات
- المدروجات
- الأمواج
- التناظر في القوانين الفيزيائية

ومن إنجازات الدكتور عبد الرزاق قدورة، مع أساتذةٍ من كلية العلوم وخارجها، وضْع معجم بعنوان:

«المعجم الكهربائي الإلكتروني»

يتضمن هذا المعجم أكثر من ستة آلاف مصطلح بأربع لغات: الإنكليزية والفرنسية والروسية والعربية (مع شرح المصطلح بالعربية)، وهو من مطبوعات وزارة الدفاع في سورية عام ١٩٧٥، وكان الأول من نوعه في العالم العربي.

وقد عكفت على إعداده لجنة مؤلفة من السادة:

- العميد الركن سيف الدين الحسامي رئيسًا
- الدكتور المهندس عبد الرزاق قدورة عضوًا
- العميد المهندس سهل الصوفي عضوًا
- المقدم المهندس محمود إياس عضوًا
- الأستاذ سعيد الأفغاني عضوًا
- الأستاذ عبد الكريم مأمون الكناني عضوًا
- المهندس أحمد عجان عضوًا

وصدر المعجم في مجلَّدين كبيرين يقع المجلَّد الأول منهما في ٧٨١ صفحة، في حين يقع المجلَّد الثاني في ٥٥٠ صفحة.

وإضافةً إلى إجادة الدكتور قدورة لغير لغةٍ أجنبية، فقد كان متمكِّنًا من لغته العربية، متضلِّعًا منها مالكًا لناصيتها. وهذا ما حدا المترجم الأستاذ أديب يوسف على اختياره لمراجعة كتابٍ ترجمه الأستاذ يوسف ضمن سلسلة تبسيط العلوم، وعنوانه «عمالقة العلم» يقع في نحو ٣٥٠ صفحة، وأشرفت على طباعته وزارة الثقافة والإرشاد القومي في سورية. وهو يقدِّم موجزًا عن حياة ٥٠ عالمًا اشتهروا بإنجازاتهم العلمية بدءًا من فيثاغورس وانتهاءً بالعالم الإيطالي آنريكو فيرمي.

* * * * *

الدكتور قدورة موفداً لتحصيل شهادة الدكتوراه

أُوفد الدكتور قدورة إلى جامعة بريستول في بريطانيا، بالقرار رقم ٦٠ م.ج تاريخ ٢٠-٧-١٩٥٧ وعمل هناك باحثًا مع البروفسور باول *C.F.Powell* الحائز على جائزة نوبل عام ١٩٥٠ لتطويره تقانة المستحلبات النووية *nuclear emulsions* واكتشافه الجسيم الأوَّلي *pi-meson* لدى دراسته للأشعة الكونية *cosmic rays* في الغلاف الجوي الأرضي، وعلى ارتفاعات عالية.

وقد أثنى البروفسور باول على الدكتور قدورة ثناءً حسنًا وأشاد بأدائه العلمي ضمن فريق العمل لديه، وذلك في رسالةٍ بعث بها إلى الأستاذ وجيه القدسي الذي كان عميدًا لكلية الهندسة المدنية في ذلك الحين، وعدَّدَ في تلك الرسالة إنجازات الدكتور قدورة ضمن فريق البحث، ووصفه بـ «العالِم الشاب الرائع».

وتضمَّنت إنجازاته ثلاثة أبحاثٍ مهمة هي:

1-Some Features of Nuclear Interactions of energy between 10^{12} & 10^{15} ev.

2-High Energy Gamma-Rays & Jet showers.

3-The Flux of x-Rays at High Altitudes and comparison with the Muon Flux at sea- level.

وقد نُشرت هذه الأبحاث في مجلاتٍ عالميةٍ مرموقة، وأهَّلته فيما بعد لنيل شهادة الدكتوراه عام ١٩٦١ من جامعة بريستول.

وفي رسالةٍ أخرى إلى رئاسة جامعة دمشق مؤرَّخةٍ في ١٢/ ١/ ١٩٦٠، يطلب فيها البروفسور باول الموافقة على تمديد إيفاد السيد قدورة عامًا آخر،

بالنظر إلى أهمية البحث الذي يعمل عليه، وحاجته إلى مدةٍ إضافية لإتمام تجاربه المعمَّقة فيه والوصول إلى النتائج الدقيقة المرجوَّة. بل ذهب البروفسور باول أبعد من ذلك عندما أبدى استعداد جامعة بريستول لدعم الموفد قدورة ماليًّا إذا كانت قوانين الإيفاد في سورية لا تسمح باستمرار دعمه ماليًّا بعد تمديد إيفاده.

* * * * *

الدكتور قدورة مدرّسًا في كلية الهندسة المدنية ووكيلاً ثم عميدًا لها

عاد الدكتور قدورة من إيفاده إلى جامعة بريستول وعُيِّن مدرِّسًا في كلية العلوم التي أوفد منها، ثم نُقل بموجب القرار الوزاري ذي الرقم ٩١/م.ج والتاريخ ٤-١٢-١٩٦٢ إلى كلية الهندسة المدنية، ليعيَّن بعد ذلك وكيلًا لها بموجب القرار الوزاري ذي الرقم ٩٢/م.ج والتاريخ ٢٩-٧-١٩٦٣، ثم عميدًا للكلية بموجب القرار الوزاري ذي الرقم ٢٢/م.ج والتاريخ ٢٦-٢-١٩٦٤.

وقد استمر في عمله بصفة عميد حتى ٢-٧-١٩٦٧، حين أسندت العمادة إلى الدكتور نور الدين الرفاعي رحمه الله.

تميزت مدة عمل الدكتور قدورة في كلية الهندسة المدنية بإنجازات هامة تقع في مجالي الترجمة والأعمال الإنشائية.

ففي مجال الترجمة شارك الدكتور قدورة مع الدكتور أحمد حصري والمهندس وجيه السمان بترجمة الطبعة الرابعة لكتاب:

Modern University Physics

وهو من منشورات دار *Addison- Wesley* للطباعة والنشر.

يقع هذا الكتاب في ٩٩٣ صفحة، وقد صدرت ترجمته إلى اللغة العربية في ثلاثة أجزاء كالآتي:

الجزء الأول
الميكانيك الفيزيائي والصوت

- تركيب الأشعة وتحليلها
- التوازن
- التوازن، عزم قوة
- الحركة المستقيمة
- قانون نيوتن الثاني. الثقالة
- الحركة المستوية
- العمل والطاقة
- الدفع وكمية الحركة
- الدوران
- المرونة
- الحركة التوافقية
- الحركة الموجية
- الأجسام المهتزة- الصوت
- توازن السوائل

الجزء الثاني
الحرارة والكهرباء

- درجة الحرارة- التمدد
- العمل والحرارة
- قوانين الترموديناميك
- الغاز الكامل والنظرة الذرية للمادة
- قانون كولون
- الحقل الكهربائي
- الكمون
- التيار والمقاومة
- دارات التيار المتواصل
- الحقل المغناطيسي
- القوى المغناطيسية المؤثرة في النواقل
- الحقل المغناطيسي للتيار
- الخواص المغناطيسية للمادة
- القوة المحركة الكهربائية المتحرضة
- المكثفات
- خواص العوازل
- التحريضية والتيارات الانتقالية
- التيارات المتناوبة
- الأمواج الكهربائية المغناطيسية

الجزء الثالث
الضوء والفيزياء الحديثة

- طبيعة الضوء وانتشاره
- الانعكاس والانكسار
- العدسات
- التداخل والانعراج
- الاستقطاب
- النظرية الكمية (الكوانتية) في الإشعاع
- نموذجا رذرفورد وبور الذرّيان
- النسبية
- الأشعة السينية
- الجسيمات والأمواج
- النشاط الإشعاعي الطبيعي
- التفاعلات النووية
- النشاط الإشعاعي الصنعي
- الطاقة النووية
- الأشعة الكونية والجسيمات الأساسية

* * * * *

ولدى الانتهاء من الترجمة والتدقيق تولَّت مطبعة محمد هاشم الكتبي طباعته عام ١٩٧٣ وذلك بصف أحرفه حرفًا حرفًا، إذ لم تكن الطرائق الأخرى المستحدثة في الطباعة شائعةً بعد. وصدر الكتاب أخيرًا في جزأين وثلاثة كتب هي: الجزء الأول (١- الميكانيك والصوت) ويقع في ٤٩٦ صفحة، الجزء الأول (٢- الحرارة والكهرباء) ويقع في ٥٧٥ صفحة، والجزء الثاني في الضوء والفيزياء الحديثة ويقع في ٧٠٣ صفحة.

وكانت جامعة دمشق تمنح مكافأة مالية لإعداد الكتب الجامعية تتناسب مع عدد الساعات التي يستغرقها المقرر، لا مع حجم الكتاب، وكانت حصة كل من المشاركين ألفي ليرة سورية فقط.

تجدر الإشارة إلى أن الكتاب اعتُمد فور صدوره ليدرَّس في كليات الهندسة جميعها، إضافةً إلى كليات العلوم والطب والصيدلة، بل إن جامعة الرياض في المملكة العربية السعودية استأذنت جامعة دمشق في طباعته لديها، ووافقت

جامعة دمشق على ذلك، وصدر الكتاب عن جامعة الرياض عام ١٩٨٠. ويشار إلى أن الكتاب بالعنوان ذاته طُبع عدة مرات في الولايات المتحدة الأمريكية، بتعديلاتٍ طفيفة تناولت بصفةٍ أساسية إدخال الواحدات الدولية للمقادير الفيزيائية، إضافةً إلى استخدام الصور الملونة وتحسين الإخراج. وقد صدرت آخر طبعاته، وهي الطبعة العاشرة، عن دار *ADDISON-WESLEY* للطباعة والنشر عام ٢٠٠٠.

وثمة أيضاً كتاب آخر نهض الدكتور قدورة بترجمته بمشاركة كلٍّ من الأستاذ وجيه القدسي والمهندس الوليد ملحس هو: *Engineering Mechanics* (الطبعة الرابعة) لمؤلفيه *S. Timoshenko* و *D. H. young* من منشورات شركة *McGraw-Hill Book Company*.

يقع الكتاب في ٤٧٨ صفحة ويعالج أبحاثًا في علم السكون *Statics* وأخرى في علم التحريك *Dynamics*، ويتألف من عشرة فصول وقد صدرت ترجمته إلى اللغة العربية في كتابين هما:

- علم التحريك عام ١٩٧١ وعدد صفحاته ٦٢٨ صفحة
- علم السكون عام ١٩٨٥ وعدد صفحاته ٦٧٢ صفحة

وفيما يلي عناوين فصول الكتاب المذكور بجزأيه:

Part One: Statics

Ch1 Concurrent Forces in a Plane
Ch2 Parallel Forces in a Plane
Ch3 General Case of Forces in a Plane
Ch4 Force Systems in Space
Ch5 Principle of Virtual work

Part Two: Dynamics

Ch6 Rectilinear Transition
Ch7 Curvilinear Transition
Ch8 Rotation of a Rigid Body about a fixed Axis
Ch9 Plane motion of a Rigid Body
Ch10 Relative Motion

وأما في مجال الأعمال الإنشائية، فقد اشتملت إنجازات الأستاذ الدكتور قدورة في كلية الهندسة على الفعاليات الآتية:

١- سعيه لتأسيس قسم العلوم الأساسية في الكلية، وهو قسم يشرف على تدريس مقررات الفيزياء والكيمياء والرياضيات والمقررات الهندسية الأساسية كالرسم الهندسي والورشات. وقد استقدم لهذه الغاية خيرة الأساتذة والمحاضرين من كلية العلوم ووزارات الدولة ومؤسساتها.

٢- تأسيس الورشات في كلية الهندسة المدنية، وهي خمس ورشات:

- ورشة الخراطة والتسوية
- ورشة النجارة
- ورشة السباكة
- ورشة الحدادة واللِّحام
- ورشة التمديدات الكهربائية والآلات الكهربائية

وكان الطالب ينتقل من ورشةٍ إلى أخرى يمارس فيها أعمالًا يدوية، وكان ذلك يشكل جزءًا مكملًا لإعداده هندسيًا.

٣- تخصيص مسجد وموضأ للطلاب، ومسجد وموضأ للطالبات، لأداء الصلوات، لأن الدروس والمحاضرات كانت تمتد حتى وقتٍ متأخرٍ من النهار.

وعندما رُشح الدكتور قدورة لشغل منصب وكيل جامعة دمشق عام ١٩٦٨ كان موقف طلاب الكلية حينَها مفاجئًا للجميع، فقد أضرب الطلاب عن حضور المحاضرات، إذ أدركوا أن ذلك سيحول دون إلقاء محاضراته عليهم، وسيشغله منصبه الجديد عن استمتاعهم بهذه المحاضرات، ولم يهدأ لهم بال حتى طمأنهم الدكتور قدورة بأن المنصب الذي سينتقل إليه سيكون كسبًا لهم ودعمًا لكليتهم، وهكذا كان بالفعل. فقد استقدم – وهو في منصبه الجديد– أساتذة أكفياء من أبناء الوطن كانوا في الولايات المتحدة وفي بلدانٍ أخرى للتدريس في كليات الجامعة، ومنها كلية الهندسة المدنية، أذكر منهم الدكتور فيصل الخليل باختصاص الهندسة الإنشائية وغيره.

* * * * *

الدكتور قدورة مجمعيًّا

عُرِفَ الدكتور قدورة بتمكُّنه من اللغة العربية ورسوخ قدمه فيها، إلى جانب إتقانه لغاتٍ أجنبيةً أخرى، وعُرف كذلك بعلمه الواسع وبشخصيته العلمية والثقافية الفذة. فكان من ثمَّ أهلًا لتسميته عضوًا في مجمع اللغة العربية، وكان ذلك بموجب المرسوم رقم ١٣٧٧ تاريخ ٥-٧-١٩٧٥ الصادر عن رئاسة الجمهورية، ثم إنه عُيِّن عضوًا في لجنة مصطلحات العلوم الرياضية والمعلوماتية والفيزيائية والكيميائية بموجب القرار رقم / ٨٩/ تاريخ ١٢-٧-٢٠٠٥ الصادر عن رئيس مجمع اللغة العربية. وسُمِّي عضوًا في لجنة مجلة المجمع ومطبوعاته بموجب القرار رقم / ٨٥/ تاريخ ١٢-٧-٢٠٠٥.

كانت مشاركة الدكتور قدورة في اللجان التي شارك فيها في المجمع متميِّزةً وبنّاءةً دومًا. ففي نطاق النشاط الثقافي لمجمع اللغة العربية، قام - رغم أعبائه الأخرى التدريسية والإدارية - بإلقاء محاضرةٍ في مكتبة الأسد بدمشق بتاريخ ١٧/ ٥/ ١٩٩٥، عنوانها:

«قمم العلم في عام ١٩٩٤ في أعين مجلة سيانس»

وقد تولَّى مجمع اللغة العربية بدمشق نشر هذه المحاضرة وهي تقع في أربعٍ وعشرين صفحة في الكتاب الذي يحمل عنوان: (محاضرات المجمع في الدورة المجمعية ١٩٩٤-١٩٩٥).

وقد عدَّد الدكتور قدورة في محاضرته القيمة، عشرة اكتشافات علمية هامة

في هذا المجال هي:

١- إصلاح استنساخ الرسالة الموروثة

٢- انتحار الخلايا

٣- اصطدام مذنَّب بالمشتري

٤- الشبكة التي تحيط بالعالَم

٥- عمر الكون

٦- أسلاف الإنسان

٧- تنظيم نمو الكائن الحي

٨- المواد الكهربائية الجديدة

٩- لبِنَة المادة الأخيرة

١٠- دواء الكآبة الجديد

ثم استوفى المحاضر شرح كلٍّ منها بلغةٍ عربيةٍ فصيحةٍ تنمّ على سعة اطلاعه في المجالات العلمية المختلفة، إضافةً إلى اختصاصه في الهندسة والفيزياء النووية.

* * * * *

الدكتور قدورة وكيلا ثم رئيسًا لجامعة دمشق

عين الدكتور قدورة وكيلًا لجامعة دمشق بموجب المرسوم رقم ٢١٢٠ تاريخ ١٨-٩-١٩٦٨ الصادر عن رئاسة الجمهورية، ثم رئيسًا للجامعة بموجب المرسوم رقم ١٢٨٨ تاريخ ٨-٨-١٩٧٣.

ولقد أدرك الدكتور قدورة منذ اليوم الأول لتقلُّده هذين المنصبين أن إصلاح التعليم الجامعي عمومًا، وفي جامعة دمشق خصوصًا، يكمن في ابتكار قانون التفرغ ووضع القواعد الناظمة له. وعَقَدَ لتحقيق ذلك لقاءاتٍ عدة مع عمداء الكليات وأساتذتها حتى تبلور هذا النظام، فسُمح فيه للأساتذة الاختيار بين التفرغ للتدريس والتفرغ للعمل المهني والتفرغ للبحث العلمي. ولقد حضرتُ شخصيًا أحد هذه اللقاءات، فكان الدكتور قدورة يدير النقاش ببراعة منقطعة النظير، وينصت لآراء المشاركين حتى يفرغوا من إبداء آرائهم وكأنه أدرى بما يقولون. وكان يرسم في بداية كل جلسة، على دفتر يحمله معه دومًا في لقاءاته، مخططًا لتوزع الحاضرين حوله. ومما كان يميز لقاءاته دقة مواعيده، ودماثة خلقه، وطول أناته، وحسن استماعه للآخرين. ولا بأس من إيراد مقتطفات من نظام التفرغ الذي وُضع موضع التطبيق في عهده.

نص هذا القانون على تفرغ عضو الهيئة التعليمية (أي عضو الهيئة التدريسية أو الهيئة الفنية أو المعيدين) للأعمال العلمية التي حدَّدها القانون بما يلي:

أ- التدريس وواجباته

ب- البحث العلمي وواجباته

ج- الأعمال الإدارية العلمية

وجعل القانونُ التفرغَ لعضو الهيئة التعليمية اختياريًا، وحظر على المتفرغ ممارسة أية مهنة حرَّة خارج الجامعة.

منح القانون تعويض التفرغ بالنسب الآتية من الراتب الشهري المقطوع بتاريخ أداء العمل وفقًا لما يأتي:

١٠٠ ٪ لأعضاء الهيئة التدريسية

٥٠ ٪ لأعضاء الهيئة الفنية

٢٥ ٪ للمعيدين

كذلك حدَّد القانون مجموعَ ساعات الدوام للمتفرغين في الهيئات التي يتفرغون فيها بـ ٣٦ ساعة أسبوعيًا، ومن ضمنها ساعات التدريس وهي - حسبما نصّ عليها القانون - كما يلي لأعضاء الهيئة التدريسية:

الأستاذ	١٠ ساعات
الأستاذ المساعد	١١ ساعة
المدرس	١٢ ساعة

ولأعضاء الهيئة الفنية:

مدير أعمال	١٣ ساعة
المشرف على الأعمال	١٤ ساعة
القائم بالأعمال	١٥ ساعة
المعيد	١٤ ساعة

ونـصَّ القـانون أيضًـا عـلى قيـام المتفـرغين ببحـوثهم في مبـاني الجامعـة ومخابرها، في حين توفِّر الجامعة مستلزمات البحث العلمي من أجهزةٍ وموادَّ ومراجع ومجلات ونشرات وغيرها.

ولقد مكَّنه إتقانه للغتين الإنكليزية والفرنسية، وإلمامه باللغتين الروسية والألمانية من عقد اتفاقات ثقافية مع العديد من الجامعات الأجنبية تتضمن استقدام أساتذة أجانب للتدريس في الجامعات السورية، وإيفاد أساتذة سوريين في مهمات علمية إلى الجامعات الأجنبية بصفة أساتذة زائرين وغير ذلك.

ولقد استفاد أساتذة كثيرون من فرص المهمات العلمية هذه، وحقَّقوا إنجازاتٍ مهمةً وصداقات، كان لها أثر كبير في تفعيل التعاون في مجال البحث العلمي بين الجامعات الأجنبية والجامعات السورية. وأذكر بهذه المناسبة كيف أجرى الدكتور قدورة ترجمةً فوريةً لمحاضرةٍ ألقاها أستاذٌ زائر من بريطانيا حتى قبل أن يسمى رئيسًا لجامعة دمشق، فما فات الحضورَ من الطلاب فكرةٌ من الأفكار التي قدَّمها المحاضِر بفضل براعة الدكتور قدورة في الترجمة وتمكّنه في الوقت ذاته من اللغتين: العربية والإنكليزية.

ولقد أثنى مجلس جامعة دمشق على خدمات الدكتور قدورة وحسن أدائه في عمله عندما كان رئيسًا للجامعة، وذلك قبيل التحاقه بعمله الجديد مديرًا عامًا مساعدًا لمنظمة اليونسكو في باريس.

* * * * *

الدكتور قدورة مديرًا عامًّا مساعدًا للعلوم في منظمة اليونسكو

أعير الدكتور قدورة إلى منظمة اليونسكو بموجب المرسوم رقم ٢٦٢٧ تاريخ ١١/ ١١/ ١٩٧٥، وسُمِّي هناك معاونًا للمدير العام للمنظمة للشؤون العلمية. وقد تميَّز عملُه هناك بعدة نشاطات امتدَّت حتى عام ١٩٨٨م نذكر منها:

١- تمثيل المدير العام لليونسكو في اللقاءات والمنتديات العلمية الدولية، وإلقاء كلمات الافتتاح فيها، ومن ذلك:

IOC. Executive Council; 8th session; Paris; 1977

- Statement by Dr. A.R. Kaddoura, Assistant Director- General for Science, Unesco; Paris, 4 April 1977
- Allocution de M.A.R.Kaddoura, Sous-directeur general pour les Sciences, Unesco, Paris, le 4 avril 1977
- Declaración del Dr. A.R .Kaddoura, Subdirector General para Ciencias, Unesco, Paris, 4 de abril de 1977

Publ:1977;2p;IOC/INF.328;SC.77/CONF.205/COL.40;SC.77/CONF.205/COL.37.

International Coordinating Council of the MAB Programme; 7th session; Paris; 1981.

Unesco-ICSU Conference-Exhibit on Ecology in Practice: Establishing a Scientific Basis for Land Management; Paris; 1981.

Kaddoura. A. R.

- Address by the Assistant Director-General for Science at the opening of the scientific conference "Ecology in Practice", held to mark the tenth anniversary of the MAB programme.
- Allocution du Sous-Directeur general chargé des sciences á l'occastion de la séance d'ouverture de la Conférence scientifique "Ecologie en action" marquant le 10e anniversaire du Programme MAB, prononcée le 22 septembre 1981
- Discurso del Subdirector General para las Ciencias, pronunciado el 22 de septiembre de 1981 en la reunion de aperture de la conferencia cientifica "La Ecologia en la Practica" en celebración del 10e aniversario del MAB.

Publ:1981;4p.;MAB/ICC.7/INF.1;SC.81/CONF.201/COL.1.

وتجدر الإشارة إلى أن مُقامه الطويل في الخارج، إضافةً إلى نشاطه وعلوِّ همته وشخصيته الثقافية والعلمية الفذّة، أولاه مكانةً رفيعةً وصِدْقيَّةً في الأوساط والمحافل الثقافية الدولية، فنشأت صداقاتٌ متينة العُرا بينه وبين بعض كبار الشخصيات العالمية، من أمثال: إدغار فور رئيس المجلس النيابي الفرنسي حينئذ، والعالم الباكستاني البريطاني محمد عبد السلام حامل جائزة نوبل في الفيزياء. وتوثَّقت علاقته بالمدير العام لمنظمة اليونسكو إلى درجةٍ لَفَتَت- بفضله- نظرَ المنظمة العالمية إلى مشكلات العالَم الثالث، التي صارت توليها المنظمةُ جزءًا كبيرًا من اهتمامها. ونال- رحمه الله- عضوية عددٍ غير قليل من الاتحادات والمجالس والجمعيات واللجان الدولية، منها: اتحاد المهندسين

البلجيكيين، واتحاد الفيزيائيين الأمريكيين، ومجلس حكّام الوكالة الدولية للطاقة الذرّية، واللجنة الاستشارية لإعداد برامج اليونسكو، والجمعية الدولية لتنمية التربية، ولجنة جائزة الملك فيصل العالمية للعلوم، واللجنة الثقافية الاستشارية لمعهد العالم العربي في باريس، وأكاديمية العالَم الثالث (برئاسة محمد عبد السلام)، ولجنة دراسة استراتيجية التربية في البلاد العربية (التي ألَّفتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (أليكسو).

٢- مع أن تعدُّد مسؤولياته وكثرة أسفاره لم تترك له متَّسعًا من الوقت للتأليف والكتابة، فقد كانت له مؤلَّفات ومشاركات ودراسات وتقارير علمية ومن ذلك:

أ- كتاب بعنوان: «***Learning to Be***»

وهو كتاب أعدَّته لجنة كان أحد أعضائها الدكتور عبد الرزاق قدورة، بتكليف من اليونسكو. نُشِر أول ما نُشر في عام ١٩٧٢. وقد تُرجم الكتاب إلى اللغة العربية بعنوان: «**تَعَلَّمْ لتكون**»

ترجمه الدكتور حنفي بن عيسى، الأستاذ بجامعة الجزائر، وراجعَ الترجمةَ الدكتور عبد الرزاق قدورة.

يتناول هذا الكتاب موضوع التربية من الجانب الإنساني، والتعليم ومستقبله. ومازال يحتلُّ مكانةً رفيعةً بين كتب التربية، وشارك الدكتور قدورة في تأليفه برفقة ستةٍ من العلماء العالميِّين بإشراف إدغار فور السياسي الفرنسي المعروف.

يقع الكتاب المترجم في / ٣٣٧/ صفحة، وهو يتضمن دراساتٍ إحصائيةً عن مستويات التعليم في مختلف دول العالم، ويقترح الحلول لما يعتري التعليم من مشكلات.

وقد وُزِّعت أبحاثه على تسعة فصول تحمل العناوين الآتية:

رقم الفصل	العنـوان
١	مسألة التربية
٢	أشواط إلى الأمام وعقبات
٣	التربية والمجتمع
٤	تحديات العصر
٥	الإعداد للمستقبل المنشود
٦	التسامي لتحقيق الأهداف
٧	الخطط التربوية، دورها ووظيفتها
٨	بعض المعلومات عن الخطط التربوية المعاصرة
٩	في طريق التضامن

ب- مقال بعنوان: «***Where is education going?***»

Kaddoura, Abdul-Razzak

Bulletin of the Unesco Regional Office for Education in Asia and the Pacific; 18, Publ: 1977; p.193-202.

جـ- مقال بعنوان:

«***The Scientific Achievement of Early Islam***»

«المآثر العلمية للإسلام الأول»

Kaddoura, Abdul-Razzak

- The Scientific achievement of early Islam
- L'Âge d'or scientifique de l'Islam
- La Edad de oro de la ciencia islámica

The UNESCO Courier: a window open on the world; XXXIV, 8/9, Publ: 1981; p.44-49, illus.*.

د- مقال بعنوان:

«Sixty Years of Science at UNESCO (1945-2005)»

أعدَّه مع آخرين بتكليف من منظمة اليونسكو.

«ستون عامًا دأبًا من العلم في اليونسكو»

١٩٤٥-٢٠٠٥

Publ: 2013; 313 p.*.

Kaddoura, Abdul- Razzak; Badran, Adnan; Iaccarino, Maurizio

- Impressions: former Assistant Directors-General for Natural Sciences
- Impressions d'un ancient Sous-Directeur general pour les sciences exactes et naturelles

Sixty years of science at UNESCO 1945-2005;

Publ:2006; p.487-495*.

Kaddoura, A; Kendrew, J; Gardner, W; Glower, G; Siragеldin, I; Shirley, D.

- The University of Qatar; evaluation report

Publ: 1993; 65 p.*; SC.93/WS/37.

The University of Qatar, evaluation report -هـ

يقع التقرير في ٤٦ صفحة ويليه خمسة ملاحق، وهو يستعرض المنهجية المتَّبعة في تقييم أداء الجامعة ضمن معايير عالمية معروفة. وقد شارك الدكتور قدورة في أعمال لجنة ألَّفتها منظمة اليونسكو لهذا الغرض.

* * * * *

الخاتمة

مُنح الدكتور قدورة وسام الاستحقاق من الدرجة الممتازة بموجب مرسوم صادر عن رئاسة الجمهورية بتاريخ ١٤-٤-٢٠٠٤، وذلك في ضوء إنجازاته في مجال التعليم والتأليف والترجمة، إضافة إلى إسهاماته في أعمال مجمع اللغة العربية والمحافل الدولية.

لم يمض وقت طويل بعد منح الدكتور قدورة وسام الاستحقاق من الدرجة الممتازة حتى آثر لقاء وجه ربه في التاسع والعشرين من شهر تموز سنة سبعٍ وألفين، رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح جناته، تاركًا أثرًا علميًّا غنيًّا يخلِّد ذكراه العطرة، وهي ذكرى خيرٍ وعلمٍ وفضلٍ وفخر. وإنما سيرة المرء آثاره، وحياة فقيدنا حافلة بالآثار القيمة والأحدوثة الطيبة.

وغادر رحمه الله أحباء كثيرين، وترك حرمه التي تحمل شهادة الدكتوراه في اللغة الإنكليزية وابنًا له اسمه سامر درس الطب في بريطانيا. ألهمهما الله الصبر والسلوان.

وفي حفل تأبينه الذي أقيم في قاعة المحاضرات بمكتبة الأسد الوطنية بتاريخ ٧/ ١١/ ٢٠٠٧ برعاية نائب رئيس الجمهورية للشؤون الثقافية الدكتورة نجاح العطار وحضره جمهور كبير من أصدقاء الفقيد وأهله وطلابه ومحبّيه، وثلة من العلماء والأدباء والمفكرين وكبار شخصيات الدولة، ألقى كلٌّ من رئيس جامعة دمشق ونائب رئيس مجمع اللغة العربية وأمين المجمع وشقيق الفقيد كلماتٍ تنم على صادق حبهم لفقيد الوطن الدكتور قدورة.

وقد تولى المجمع طباعة الكلمات التي ألقيت في هذا اللقاء ضمن كتيب بعنوان:

«حفل تأبين الأستاذ الدكتور محمد عبد الرزاق قدورة رحمه الله»

وهكذا طُويت صفحة هذا الرجل الفذِّ النادر المثال، ومضى عن هذه الدنيا كما هو سبيل كلِّ حيّ..

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٢].

وقد ورد في الأثر: «عِش ما شئت فإنك ميّت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌّ به».

بعد نحو عقدين من استقبال الدكتور قدورة عضوًا في مجمع اللغة العربية، وسنةٍ على رحيله، استُقبل الأستاذ مروان البواب ليحلَّ مكانه في عضوية المجمع، فكان - بحمد الله - خير خلفٍ لخير سلف.

* * * * *

الفصل الثاني

الدكتور عبد الرزاق قدورة
بأقلام أصدقائه ومحبيه

كلمة الأستاذ المهندس وجيه السمان
في حفل استقبال الدكتور قدورة
عضوًا في مجمع اللغة العربية[1]

أيها السيدات والسادة

اسمحوا لي أن أتلو عليكم موجزًا لوقائع سيرة زميلنا الجديد العزيز الذي نحتفل اليوم باستقباله في مجمع اللغة العربية بدمشق. إنها وايم الحق تبين على إيجازها سيرة رجل دأب طول حياته على الكدِّ والتعب في طلب العلم على النسق الذي نجده في سير علمائنا الكبار الذين تعاقبوا في العصور الزاهرة للإسلام وبنوا بكدِّهم وعملهم الدائب تلك الحضارة التي نفتخر ونتغنى بها والتي اعترفت وأقرت بها الأمم جميعًا.

ولا بد لي من أن أمهد لسرد سيرة زميلنا من لمحة تاريخية سأتعرض لها بسرعة خاطفة: لقد وفدت أسرة زميلنا إلى دمشق قادمة من ليبيا قبيل الحرب العالمية الأولى، وقد كان القرن التاسع عشر قرن تتويج الاستعمار الأوربي لما أنشأه من إمبراطوريات زالت الآن جميعها والحمد لله.

لقد بدأ غزو الجيش الفرنسي للجزائر عام ١٨٣٠، وأخذ يتوغل في أراضيها حتى استتب له الأمر عام ١٨٥٤ وتمت سيطرته عليها عام ١٨٩١.

وبدأ غزو الديار التونسية عام ١٨٨١.

واحتل الفرنسيون المغرب نهائيًا عام ١٩١٢.

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ل، الصفحة ١٣٦.

وأما ليبيا فقد غزاها الإيطاليون واستولوا عليها عام ١٩١٢.

وأما مصر والسودان فقد كانا من حصة إنكلترة؛ إذ ضمَّا إلى الإمبراطورية البريطانية التي لا تغيب عنها الشمس كما كانوا يقولون، والتي غابت عنها بعد ذلك.

وقد كان من نتائج الغزو الأجنبي لشمال إفريقية أن نزحت أسر كثيرة من مواطنيها عن بلادها واختارت الإقامة في مصر أو في غيرها من البلاد العربية التي كانت إذ ذاك جزءًا من الإمبراطورية العثمانية.

وكان نصيب دمشق من هذه الهجرة كبيرًا لما تتمتع به من مكانة في قلوب المسلمين. ويكفي أن نذكر أسرة الجزائري ذات المكانة الكبيرة والتي منها تحدر جميع الذي يحملون اسم الجزائري عندنا.

ولد المرحوم إبراهيم بن عبد القادر قدورة والد زميلنا العزيز عام ١٨٨٩ في مدينة «خُمْس» الواقعة على بعد مئة كيلومتر تقريبًا إلى شرق طرابلس الغرب. وتسمى هذه المدينة أيضًا «حمص»، وهكذا وجدت اسمها في الأطلس الجغرافي. وفيها آثار رومانية ضخمة. وكان والده، جدّ زميلنا، السيد عبد القادر تاجرًا في تلك المدينة.

وفي عام ١٩١٢ هاجرت هذه الأسرة إلى دمشق وسكنت في الصالحية، وغدا السيد عبد القادر تاجرًا وانتسب ابنه إبراهيم إلى سلك الشرطة.

وفي عام ١٩٢٨ ولد زميلنا عبد الرزاق، واسم والدته حميدة، وكانت مدرِّسة وتوفيت عام ١٩٣٦، وأهلها من الشراكس الذين هاجروا إلى دمشق في أواخر القرن التاسع عشر عندما احتل الروس بلدهم الواقع في الشمال الغربي من القفقاس (قرب مدينة ستافروبول).

وهكذا فإن زميلنا الكريم دمشقي، وقد تلقى دروسه الابتدائية والثانوية في دمشق، فدَرَسَ فيما بين ١٩٣٤ و ١٩٣٨ في مدرسة طارق بن زياد الابتدائية (في الشمسية بحيّ المهاجرين).

وتلقى دراسته الثانوية فيما بين ١٩٣٩- ١٩٤٦ في مدرسة التجهيز الأولى بدمشق، وقد سُميت فيما بعد بتجهيز جودة الهاشمي.

في هذه الأثناء تقاعد والده بعد أن ظلَّ مفوضًا للمركز في دمشق سبعة عشر عامًا، وفي السنتين الأخيرتين من هذه الدراسة الثانوية تعرفتُ إلى الزميل عبد الرزاق قدورة إذ كان في عداد الطلاب الذين درَّستُهم الفيزياء. فكانت هذه المناسبة بداية معرفة واتصال ومودة ازدادت مع الأيام ثقة وتمكنًا.

كان زميلنا واحدًا من بين القلائل الذين اختارتهم الدولة للإيفاد إلى أوربا لأنه نجح في فحص الشهادة الثانوية نجاحًا قلده الأولية بين أقرانه، فأُرسل لتلقي دراسته الهندسية في جامعة بروكسل الحرة ببلجيكا، حيث حاز على دبلوم في الهندسة الكهربائية.

عاد بعد ذلك إلى الوطن فأمضى سنته الأولى مهندسًا في وزارة الأشغال والمواصلات بدمشق، وقام في السنتين ١٩٥٣-١٩٥٥ بخدمة العلم في إدارة الهندسة العسكرية.

ودفعه حبه للتدريس إلى السعي في تعيينه أستاذًا في جامعة دمشق، فدرَّس الفيزياء في العامين الدراسيين اللذين أعقبا ذلك في كلية العلوم بدمشق.

ثم أُوفد إلى إنكلترة ما بين ١٩٥٧ و ١٩٦١ لإعداد شهادة الدكتوراه في جامعة بريستول في بريطانيا فحاز عليها، في موضوع الفيزياء النووية ذات الطاقات العالية. وكانت هذه الدراسة سببًا لتوطيد عرى صداقة طيبة بينه وبين

أستاذه سيسيل فرانك باول (حامل جائزة نوبل) وظلت هذه الصداقة قائمة حتى وفاة أستاذه.

ثم عاد إلى دمشق ١٩٦١ لتدريس الفيزياء في كلية العلوم، حيث أصبح أستاذًا مساعدًا فيها.

وفي هذا الوقت وفقنا الحظ إلى التعاون معًا في خدمة المجلس الأعلى للعلوم، حيث عُينت رئيسًا للجنة المقررين من آخر ١٩٦١ إلى آخر ١٩٦٤، كما كنا زملاء ندرِّس الفيزياء في كلية الهندسة.

ثم عُين وكيلًا لكلية الهندسة بجامعة دمشق في العام الدراسي ٦٣-٦٤، وأصبح في السنوات التي بعدها عميدًا لهذه الكلية مدَّة أربع سنوات، أي حتى نهاية عام ١٩٦٨.

وانتقل من هناك فأصبح وكيلًا بجامعة دمشق مدَّة عام واحد، ثم أُوفد بعدها مدة عامين للقيام ببحوث في الفيزياء النووية في جامعة أكسفورد، نشر خلالها عددًا من البحوث في مجال اختصاصه.

وعند عودته إلى دمشق عُين رئيسًا لجامعتها ودامت رئاسته ثلاثة أعوام من ١٩٧٣ إلى ١٩٧٦.

في عام ١٩٧٦ عُين مديرًا عامًّا مساعدًا في اليونسكو في الشؤون العلمية، وبقي في هذا المنصب اثني عشر عامًا؛ أي إلى عام ١٩٨٨، يعاد تعيينه كل سنتين. وهو بعد هذا التاريخ محال على التقاعد.

أيها السادة

لقد سردت قائمة الدراسات التي قام بها والوظائف التي شغلها زميلنا العزيز سردًا موجزًا، وأحب الآن أن انتقل إلى تعداد المراكز العلمية الاستشارية

التي أسندت إليه، لا من قبل حكومته فحسب، بل من قبل المؤسسات العلمية الأجنبية تقديرًا لمكانته العلمية.

- لقد كان حتى تقاعده عضوًا عاملًا في نقابة المهندسين السوريين.

وهو: عضو في اتحاد المهندسين البلجيكيين.

- عضو في اتحاد الفيزيائيين الأمريكيين وفي الجمعية الأمريكية لتقدم العلوم.
- وكان فيما بين ١٩٧٠ و ١٩٧٢ عضوًا في اللجنة الدولية لتنمية التربية، التي كان يرأسها السيد إدغار فور، وكان فيها إلى جانب الرئيس ستة أعضاء: (واحد من كل منطقة من المناطق الجغرافية الكبرى) فكان الرئيس لأوربا الغربية، والأعضاء لـ: أوربا الشرقية، أمريكا الشمالية، أمريكا الجنوبية، آسيا، إفريقية، البلاد العربية.

  وقد نشر كتابًا عنوانه: «تعلَّمْ لتَكون»، نُشر في لغات عديدة منها العربية طبعًا.
- عضو في مجلس حكام الوكالة الدولية للطاقة الذرية (١٩٧٠-١٩٧٢). وقد كنت قبلها وزميلي المحترم عضوين في الوفد الذي أرسلته الحكومة السورية لتمثيل سورية في مؤتمر التطبيقات السلمية للطاقة الذرية بجنيف، وفي الاجتماع السنوي لوكالة الطاقة الذرية في فيينا عام ١٩٦٤، كما أننا كنا عضوين في الوفد الذي أرسل إلى جنيف عام ١٩٥٥ لحضور المؤتمر الدولي الأول للتطبيقات السلمية للطاقة الذرية.
- عضو في اللجنة الاستشارية لجامعة الأمم المتحدة، ثم في اللجنة

المؤسسة لها، ثم في أول مجلس لها وأصبح نائب رئيسه (١٩٧١-١٩٧٦).

- عضو في اللجنة الاستشارية لإعداد البرنامج المتوسط الأجل لليونسكو، وكان رئيس إحدى دوراتها الثلاث (١٩٧٥-١٩٧٦).
- عضو في مجلس إدارة المركز العربي السعودي للعلم والتكنولوجيا (١٩٧٩-١٩٨٧).
- عضو في لجنة جائزة الملك فيصل العالمية للعلوم (١٩٨١- حتى الآن).
- عضو في اللجنة الثقافية الاستشارية لمعهد العالم العربي في باريس (١٩٨٩- حتى الآن).
- عضو مراسل في مجمع اللغة العربية الأردني.
- عضو في أكاديمية العالم الثالث (وهي أكاديمية للعلوم الطبيعية أعضاؤها من العالم الثالث ورئيسها الأستاذ محمد عبد السلام (الباكستاني) الأستاذ في جامعة لندن ورئيس مركز الفيزياء في تريستا وحامل جائزة نوبل لعام ١٩٧٩.
- عضو في اللجنة التي ألفتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لتقوم بدارسة استراتيجية التربية في البلاد العربية.

كان لا بد لرجل من هذا المعيار أن تكون له آثار علمية كثيرة. والحقيقة هي أن الأعمال التي تقلدها والمهمات الكثيرة التي أداها لم تترك له من الوقت ما يكفي ليفيد من مطالعاته العلمية الغزيرة واطلاعه الواسع. ومع ذلك فإني أذكر له ما يلي:

- نشرات علمية بالإنكليزية في الفيزياء النووية ذات الطاقات العالية نشرت بين أعوام ١٩٥٩ و ١٩٧٢.
- مشاركته في إعداد المعجم الكهربائي الإلكتروني [باللغات: العربية والفرنسية والإنكليزية والروسية].
- مشاركته في ترجمة كتب فيزيائية وهندسية من الفرنسية أو الإنكليزية إلى العربية: (مثل الجزأين المتعلقين بالكهرباء من مجموعة الفيزياء العامة والتجريبية للعالمين فلوري وماتيو، ومن دواعي سروري أننا تعاونا معًا في إنجاز هذين الكتابين مع اثنين من الزملاء أساتذة الفيزياء في جامعة دمشق).
- كتاب الميكانيك لتيموشنكو.
- وكتاب الفيزياء الحديثة للجامعات.

زميلنا الجديد أيها السادة محبٌّ للغات الأجنبية إضافةً إلى شدَّة محبته للغة العربية. فهو يتقن الإنكليزية والفرنسية، وأعلم أنه يلم بالروسية والألمانية، وأذكر أننا عندما كنَّا في فيينا عام ١٩٦٤ كان يحمل معه معجمًا ألمانيًا صغيرًا تدرب على الاستعانة به بأقصى السرعة كلما احتاج إلى إلقاء سؤال أو إعطاء جواب باللغة الألمانية.

وهو يهتم باللغة الإيطالية، وقد كنت أمازحه فأقول إنه ينطق بالألسن السبعة، على نحو ما يقول المثل العامي عندنا.

يعيش زميلنا عيشة هادئة منتظمة ينام باكرًا ويستيقظ باكرًا فيكون ذهنه مستريحًا مهيَّأً للدراسة والمطالعة والكتابة. وهو يضن بأن ينفق الوقت في غير ما يفيد، فكأنما لسان حاله يتبع قول الشاعر:

إذا مـــرَّ بي يـــوم ولم اتخـــذ يـــدا ولم استفد علمًا فما هو من عمري

لقد سلك طوال سنواته التي عرفته فيها هذا المسلك، فكوَّن رأس مال علمي كبير جدًا هو ثروة يستفيد منها الغرب الآن، ونرجو أن نستفيد منها نحن أيضًا، لأنه كما قال الشاعر:

والمـــرءُ تُنـــزعُ منـــه كـــلّ ولايـــةٍ إلَّا ولايـــةَ علمِـــه لا تُنـــزعُ

لقد سنحت له الفرص أثناء تأدية الأعمال التي كلف بها، للتعرف إلى نخبة من الرجال الأفذاذ الذين يقودون العلم والفكر في العالم، فقدروه حقّ قدره واستفادوا من إمكاناته الممتازة، ونحن لسنا أقلّ رغبة في الإفادة من ثمرات علمه الواسع، ونحن أحقُّ من غيرنا في ذلك.

فحقق الله لنا به الآمال ووهبه عمرًا مديدًا ونشاطًا دائمًا وهمَّة لا تضعف.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * * * *

عبد الرزاق قدورة
سفير سورية في المحافل العلمية [1]

هو ابن «جامعة دمشق»، التي رعته طالبًا وعرفته أستاذًا وقدرته رئيسًا لها، وأحد الخبرات العلمية التي تنقلت بين عواصم العالم، فكان خير سفير لسورية في المؤتمرات والمحافل العلمية العالمية.

إنه الأستاذ الدكتور «عبد الرزاق قدورة»، الذي عُرف بتفوقه العلمي منذ مراحل دراسته الأولى، وهو أيضًا بالنسبة إلى الكثيرين عنوان للنجاح الأكاديمي والإداري الذي عاشته جامعة دمشق في المدة الواقعة ما بين ١٩٧٣ و ١٩٧٦، وهي المدة التي تولى بها رئاسة «جامعة دمشق». تحدث عنه الدكتور «**عبد الله واثق شهيد**» أمين مجمع اللغة العربية بدمشق **بالقول**:

«إداريًا، عمل «قدورة» على تأسيس العمل المهني للأساتذة الجامعيين ولاسيما الأطباء والحقوقيين، وعمل أيضًا على تفعيل تفرغ أعضاء التدريس في جامعة دمشق.

ومن الجانب الأخلاقي والاجتماعي؛ أحبُّ التأكيد أن الدكتور «قدورة» عُرف بين أقرانه وفي الوسط المحيط به بأنه رجل مستقيم ومتواضع، وبأنه صاحب فكر نيِّر، مُلمّ ومتفهم في أصول التحدث مع الناس مع احترامهم.

---

(١) من مقابلة أجراها عزة آقبيق مع الدكتور عبد الله واثق شهيد، موقع دمشق، الأحد ١٤ آب ٢٠١١.

أما من الجانب العلمي، فأعتقد أن الدكتور «قدورة» كان خير سفير لسورية من الناحية العلمية، خاصة أنه كان معروفًا في الأوساط العلمية العالمية. وكان الدكتور «قدورة» يملك العديد من الصداقات مع علماء وسفراء أوروبيين، بعضها كانت قوية جدًّا؛ كالصداقة التي كانت تجمعه مع الدكتور «محمد عبد السلام» المدير العام لليونسكو - الباكستاني الجنسية -، وكذا الصداقة التي جمعته مع مدير مجلس النواب الفرنسي في ذلك الوقت.»

أتقن الدكتور «قدورة» الإنكليزية والفرنسية، إضافة إلى عدة لغاتٍ أجنبية كالألمانية والروسية، وكانت له مساهمة في الترجمة تحدث عنها الدكتور «شهيد» بالقول: «أسهم الدكتور قدورة رحمه الله في ترجمة العديد من المؤلفات الجامعية المهمة من اللغتين الإنكليزية والفرنسية، وتابع نقل العلم إلى العربية بعد أن تحرر من مهام اليونسكو، فترجم ونشر في مجلة عالم الذرة السورية، وفي مجلة العلوم الكويتية.

حصل الدكتور «عبد الرزاق قدورة» على الشهادة الثانوية عام /١٩٤٦/ وكان ترتيبه الأول في امتحانات الشهادة الثانوية، ثم نال دبلوم الهندسة الكهربائية من جامعة بروكسل عام /١٩٥٩/، ثم الدكتوراه في الفيزياء النووية في الطاقة العالية من جامعة بريستول /١٩٦١/.

عُين رئيسًا لجامعة دمشق في المدة /١٩٧٣- ١٩٧٦/، وشغل بعد ذلك وحتى /١٩٨٨/ منصب نائب المدير العام لليونسكو في الشؤون العلمية. وكان أحد ستة أعضاء للجنة العالمية لوضع استراتيجية التربية، التي أصدرت كتاب «تعلَّمْ لتكون» الذي تُرجم إلى أكثر من عشرين لغة، ليعيَّن عام /١٩٧٦/ رئيسًا للجنة تقويم مشاريع اليونسكو الإقليمية في إفريقية.

كذلك كان عضوًا في لجان تأسيس جامعة الأمم المتحدة ١٩٧٥، وعضوًا وزميلًا في مجلس الحكام في الوكالة الدولية للطاقة الذرية ١٩٧٥، وعضوًا في TWAS عام ١٩٨١، وعضوًا في مجلس المركز العربي السعودي للعلوم والتقانة، وعضوًا في لجنة منح «جائزة الملك فيصل للعلوم». وكان مجمع اللغة العربية قد انتخبه عضوًا عاملًا في مطلع عام ١٩٧٥.

اقترح إنشاء مجلة عربية لتكون ترجمة لمجلة (*Scientific American*)، وكان هذا حلمه القديم، فتحقق له ذلك، وأنشأت الكويت (مجلة العلوم) التي تصدرها مؤسسة الكويت للتقدم العلمي.

ومن الكتب التي شارك الفقيد في تأليفها و/ أو ترجمتها: موسوعة فلوري وماثيو الفيزيائية، والمعجم الكهربائي الإلكتروني، والميكانيك لتيموشنكو، والفيزياء للعالم الكبير فاينمان.

كانت وفاة الأستاذ الدكتور «محمد عبد الرزاق قدورة» يوم الاثنين ٣٠/ ٧/ ٢٠٠٧ بعد رحلة طويلة حافلة بالعطاء».

* * * * *

الدكتور عبد الرزاق قدورة[1]

والده إبراهيم، وجده عبد القادر، وهم في الأصل من ليبيا من بلدة اسمها الخُمْس، تقع ما بين طرابلس وبنغازي، وتبعد عن طرابلس ١٠٠ كم تقريبًا.

في عام ١٩١٢، هاجم الإيطاليون ليبيا واستعمروها. فهاجر والد عبد الرزاق مع جده إلى سورية، وسكنوا في دمشق في حي الصالحية. أما جده، فعمل في التجارة، وأما والده فعمل في سلك الشرطة.

التحق د. قدورة في مدارس دمشق، وحصل في عام ١٩٤٦ على الشهادة الثانوية، وكان الأول على دفعته، فأُوفد إلى بلجيكا وحصل على شهادة الهندسة، عاد بعدها إلى جامعة دمشق وأدى خدمته الإلزامية. ثم سافر في عام ١٩٥٦ إلى إنكلترة لتحضير الدكتوراه، وعاد ثانية إلى جامعة دمشق.

كان تَمَيُّزه واضحًا، وكان ذكاؤه شيئًا عجيبًا، يصعب أن تجد رجلًا مثله. وكانت حياته مميزةً جدًّا. وله قواعد خاصة لا يحيد عنها، فهو مثلًا لا يسمح بزيارته في البيت إلا في وقت محدَّد. ولما تسلَّم رئاسة جامعة دمشق كان يأتي مبكرًا إلى الجامعة قبل جميع الموظفين. وهو لا يشرب الشاي ولا القهوة، ولا يدخن، ويمارس الرياضة بانتظام...

وفي عام ١٩٧٣ عندما وقعت حرب تشرين التحريرية صار ينام في الجامعة.

---

(١) من حديث للدكتور موفق دعبول ضمن حلقة من البرنامج التلفزي «مجمع ومجمعيون».

كانت تربطني بالدكتور قدورة علاقة خاصة. حضرتُ مرةً مؤتمرًا في اليونسكو في باريس، فعلم بوجودي، فدعاني إلى الغداء في المطعم. وفي منتهى الود والكرم قال لي: إن رئيس جامعة «أبها» يرغب في تعيين سوريَّيْن اثنين مستشارين له، فبحثت عنهما، ثم قلت لرئيس الجامعة عليك بالدكتور موفق دعبول.

ما تسلَّم عملًا إلا أتقنه؛ فقد تسلَّم عمادة كلية الهندسة، فنهضت كلية الهندسة في عهده. وأذكر من مواقفه أنه حصلت مسابقة لاختيار المعيدين لإيفادهم، وكان الدكتور مصطفى حداد وقتئذٍ وزيرًا للتعليم العالي، ولأمرٍ ما رفض د. حداد إيفاد الذين نجحوا في هذه المسابقة، لكن د. قدورة أصر على أن يوفد المعيدون الذين اختارهم هو، وحصل إثر ذلك على استثناء بإيفادهم.

لا يذكر أحدًا بسوء، ولو أساء إليه.

إتقانه للغة العربية كان غير عادي، إضافة إلى إتقانه لغاتٍ أخرى كالإنكليزية والألمانية والفرنسية والإيطالية. ولذلك فقد كان في منتهى الدقة عندما يؤلف أو يترجم.

كان يُحْضر زملاءه الذين شاركوا معه في ترجمة كتاب (الفيزياء الحديثة للجامعات) صباحًا باكرًا إلى الجامعة ويراجع معهم الكتاب فصلًا فصلًا.

كان رجلًا موسوعيًّا، يعرف أشياء كثيرة عن كلِّ شيء، وله مداخلاتٌ ورؤًى في شؤون كثيرة جدًّا، وكان يفاجئنا بها عندما يتحدث في موضوع أو محاضرة.

يحب التأمل كثيرًا، وله أقوال في هذا.

كان يكتب في دفاتر صغيرة جميع الأقوال والمقتطفات التي يصادفها في حياته، وعندما ينتهي الدفتر يأخذ دفترًا ثانيًا ثم ثالثًا... وهو يقلد في هذا المهندس وجيه السمان. لكنه لم ينشر هذه الأقوال والمقتطفات في كتاب. قلت له مرةً، وكان يجلس إلى جانبي في مجلس المجمع، أعطني هذه الدفاتر الصغيرة كي أنشرها لأنها مفيدة جدًّا للقراء. فقال لي: هذه خصوصية من خصوصياتي. لكني كنتُ مصرًّا على متابعة موضوع طباعتها، غير أن المنية وافته قبل تحقيق ذلك.

كان من الممكن أن يؤلف أكثر ويترجم أكثر، ولكن المواقع العلمية التي كان يشغلها صرفته عن ذلك. علمًا بأنه لم يكن يسعى إلى هذه المواقع، بل هي كانت تسعى إليه. فقد سافر إلى إنكلترة برغبة من أستاذه هناك، فهو الذي هيَّأ له القبول في الجامعة. وعندما عُين في اليونسكو كان ذلك أيضًا بسبب لقاءاتٍ حصلت بينه وبين بعض القائمين على اليونسكو، فعرفوه ووجدوه شخصًا مميزًا، فاختاروه ليكون معاونًا للمدير العام لليونسكو. وأنا برأيي كان جديرًا بأن يكون هو المدير العام لليونسكو، ولكن هذا المنصب له طابع سياسي.

انتُخب ليكون عضوًا في مجمع اللغة العربية في عام ١٩٧٤، وكان وقتها رئيسًا لجامعة دمشق، لكن استقباله في المجمع تأخر حتى سنة ١٩٩٠. وقد حضرتُ حفل استقباله، وقدمه في هذا الحفل الأستاذ وجيه السمان. ويفخر مجمعنا بأن يكون الدكتور قدورة عضوًا فيه، لأنه في ذاك المستوى العلمي الرفيع الذي يمكِّنه من تقديم خدمات جليلة في شؤون شتى. ومن الطريف أنه لم يقبل أيَّ مكافأةٍ مادية مقابل أعماله في المجمع، بل طلب إلى الدكتور عبد الله واثق شهيد – أمين المجمع وقتئذ – أن يوزِّع هذه المكافآت على العاملين في المجمع.

كان الدكتور قدورة عضوًا في كثير من اللقاءات الدولية، وكان أحد المستشارين في جائزة الملك فيصل.

طُلب إليه أن يتسلَّم وزارة التعليم العالي، لكنه كان يرى أن ذلك سيشغله عن أعماله العلمية.

توفي - رحمه الله - في ٣٠ تموز ٢٠٠٧، تاركًا ثروةً علميةً ممتازة، وقدوةً حسنةً، وسمعةً طيبة.

* * * * *

الدكتور عبد الرزاق قدورة
بعض سجاياه وشيء من الذكريات

الدكتور مكي الحسني
أمين مجمع اللغة العربية بدمشق

تعرَّفت به، رحمه الله تعالى، سنة ١٩٥٥ في قسم الفيزياء بكلية العلوم (الجامعة السورية آنئذٍ). رأيته إنسانًا لطيفًا جدًّا، طيِّب العِشْرة، واسع الثقافة، وهو إلى ذلك شديد التواضع.

- كان لدينا في قسم الفيزياء خبير إيطالي من اليونسكو هو البروفسور *Allegretti*. كنت معيدًا في القسم، وكان هو مهندسًا كهربائيًّا (قبل إيفاده لتحضير الدكتوراه). غادرنا القسم يومًا مع الخبير المذكور، فدعانا إلى الركوب في سيارته الفاخرة. فأسرع المهندس عبد الرزاق إلى الركوب في المقعد الخلفي، وترك لي أن أركب إلى جانب الخبير. ويبدو أنه أراد أن يوضح لي أنه جلس في الخلف، تكريمًا لي (وليس تقليدًا للوزراء مثلًا) فقال لي: لو كان قائد السيارة سائقًا عاديًّا لجلستُ إلى جانبه، لكنه الأستاذ المحترم فآثرتُ أن تجلس أنت إلى جواره! يا لها من لفتة كريمة تدلّ على النبل والأخلاق الرفيعة.
- كان الدكتور قدورة **يحبّ المشي**، فكان يأتي إلى مكتبه في جامعة دمشق وهو رئيسها (١٩٧٣-١٩٧٦) وتلحق به السيارة الرسمية المخصصة له!

- ويحافظ على **المواعيد بدقة غير عادية**: اتفقنا مرَّةً على أن يـزورني في بيتـي في الساعة السادسة، وكانت تلك أول زيارة فذكرت له العنوان مفصـلًا. ولـما اقترب الموعد وقفتُ في الشرفة المطِلَّة على طريق قُدومه أرقبه، وبعد هنيهـة رأيته يقترب من مدخل المبنى، ثم فجأةً قفل راجعًا! فظننت أنـه ربـما شـكّ في أنـه أخطـأ الطريـق، وناديتـه بـأعلى صـوتي لكنـه لم يسـمعني، فنزلـت إلى الطريـق وركضـت وراءه مناديًـا إيـاه، ولـما التقينـا قلـت لـه: أنـت لم تخطـئ العنوان فلماذا رجعت؟ فقال: لم يَحِنِ الوقت بعدُ: بقي خمس دقائق! فقلـت له: وهل تريد أن تحرمني من صحبتك هذه الدقائق؟ فقال بالفرنسية:

Avant l'heure, c'est pas l'heure!

(قبل الموعد، ليس بالموعد!)

Après l'heure, c'est plus l'heure!

(بعد الموعد، هذا ليس موعدًا البتة!)

L'heure c'est l'heure!!

(الموعد موعد!!)

دخلنا الدار ولم أكن أعرف شيئًا عن عاداته الخاصة، ولمّا أحضرتُ له القهوة اعتذر.

- شاي إذن؟ - لا، لا، شكرًا.
- لديّ شاي أخضر وأحمر؟ - لا،لا!
- «زهورات»؟ -لا، لا، لا شيء البتة، شكرًا جزيلًا.

وبعد مدة أحضرت زوجتي صينيةً عليها عدة أنواع من فاكهة الصيف. لكن المفاجأة هي أنه اعتذر من تناول أيّ شيء! فقلت له: ما هذا؟ هل أنت صائم؟ فأجاب بالنفي، وأضاف أن **نظامه الغذائي دقيق جدًّا**، فهو لا يتناول شيئًا البتة بين الوجبات! أدهشني نظامه الصارم هذا.

- الدكتور قدورة في مجمع اللغة العربية

كما ذكرت آنفًا كان رحمه الله شديد التواضع: فكان لا يقبل إلَّا أن يجلس على آخر مقعدٍ في قاعة «مجلس المجمع». وكنت أحاول أن أجلس بعده، لكنه كان يصرُّ على أن أجلس قبله!

كان دائمًا يحضر إلى مجلس المجمع في الموعد المحدد بالضبط، وكنت أستفيد من هذه الحقيقة فأستمتع بالجلوس إلى جواره وتجاذب أطراف الحديث معه ريثما يحضر بقية أعضاء المجمع ويكتمل النصاب.

وغالبًا ما يكون الحديث ذا صلة بما نحن فيه... ففيما يتعلق بإدارة جلسات المجمع، علَّق مرَّةً على الجلسة السابقة فذكر لي وَصْفَ السيد إدغار فور – وكان وزيرًا في حكومات فرنسا، قبل رئاسة الجنرال دوغول وتحت رئاسته وبعدها – لِجَلَسَات مجلس الوزراء (وكان د.قدورة على صلة وثيقة بإدغار فور):

«في اجتماعات المجلس قبْل دوغول كان كل وزير يفعل ما يريد، فكان أحدهم يكتب رسالة حُب إلى زوجه، وأخرى إلى خليلته. ولكنه أخطأ مرة فوضع رسالة هذه في ظرف تلك، فأتت زوجُه إلى الاجتماع التالي لمجلس الوزراء، وقتلتْه رميًا بالرصاص (وهو السيد شُـقـاليه). أما أيام دوغول فكان الوزراء يجلسون وكأن على رؤوسهم الطير!».

- وقُبيل جلسة أخرى لمجلس المجمع ذكر لي، رحمه الله، أنه في عام ١٩٥٥، بعد تخلّي أديب الشيشكلي عن رئاسة الدولة، وإقالة الأستاذ الدكتور سامي الميداني من رئاسة جامعة دمشق، أصبح الدكتور منير العجلاني، وزيرُ التربية، قائمًا بأعمال رئاسة جامعة دمشق. فكان يُعِدُّ جدولًا للأعمال كالتالي مثلًا: ١ – سقي حدائق الجامعة... ٢–... ٣–...

ويناقش المجلس هذه الأمور من الحادية عشرة (موعد بدء الجلسة) حتى الثانية إلا خمس دقائق موضوعَ السقي و.... وعندما يحين موعد نهاية الجلسة، يُخرج الدكتور العجلاني من جيبه ورقة صغيرة ويقول لهم: هناك بعض القضايا الصغيرة: تعيين عدد من الأساتذة... تسريح عدد من الأساتذة... فيوافقون جميعًا فورًا ويذهبون إلى الغداء!

- وتطرّق الحديث بيننا مرة إلى قسم الرياضيات في كلية العلوم، وكان الأستاذ نادر النابلسي أحد أركانه. فقال لي الدكتور قدورة مبتسمًا: كانوا يقولون عن أستاذنا الكبير نادر النابلسي رحمه الله، أنه متى قال عن قضية رياضية إنها **وُضوحًا كذلك**، فهذا يعني أنها ليست واضحة أبدًا!
- وذات مرة تحدثنا عن التاريخ فذكر التعليق التالي: قال كارل ماركس: «التاريخ يعيد نفسه مرتين: الأولى مأساة (نابليون الأول)، والثانية مهزلة (نابليون الثالث). وأنا أرى أن حياة كلٍّ منّا يصحّ فيها ذلك: الشباب المأساة والشيخوخة المهزلة!».
- ثم ذكر تعليق الجنرال دوغول على الشيخوخة متحدثًا عن الماريشال پيتان (الذي ترأس حكومة ڤيشي- أثناء الاحتلال الألماني لفرنسا في الحرب العالمية الثانية):

La vieillesse est un naufrage!

(أي: الشيخوخة غَرَق!)

- وكان يذكر لي أحيانًا بعض المأثورات الفرنسية تعليقًا على حديثنا. من ذلك مثلًا ما يلي:

Il ne faut pas espérer pour entreprendre; ni réussir pour persévérer.

(أي: لا يحتاج الإنسان إلى الأمل لكي يباشر... ولا إلى النجاح لكي يثابر!)

- ومن ذلك أيضًا ما قاله الشاعر والأديب الفرنسي *Nicolas Boileau*:

Ce que l'on conçoit bien s'énonce clairement, et les mots pour le dire arrivent aisément.

(أي: ما يتصوّره المرء جيدًا يُعبِّر عنه بوضوح، وتَنْثال الكلمات بسهولة.)

- وكانت ثقافته الواسعة وعشقه للعربية يتيح له أن يَغْرف من مَعِين الشعر العربي ما يناسب المقام من حديثنا... علمًا بأنه معجب بأبي الطيب المتنبي وأبي تمام الطائي الذي قال:

مَـــنْ لي بإنســـانٍ إذا أغضَـــبْتُه وأســأتُ كــان الحلــم ردَّ جوابــه

وتــراه يصــغي للحــديث بسَــمعِهِ وبِقلبِـــهِ، ولعلَّـــهُ أدرىٰ بـــه!

رحمك الله تعالى يا أبا سامر رحمة واسعة، وأجزل مثوبتك على ما قدّمت لهذه الأمة.

وإنّا لله وإنّا إليه راجعون

٢٠١٤/١٠/٣١

* * * * *

سلامات ـ عبد الرزاق قدورة العصامي[1]

الأستاذ نصر الدين البحرة

عندما كان الفيلسوف الألماني العظيم إيمانويل كانْت (١٧٢٤ - ١٨٠٤) يمر في الساحة الكبرى في مدينة كنجسبرغ، عند نزهته الصباحية كل مطلع نهار، كان الناس هناك ينظرون إلى ساعاتهم: إنها السابعة تمامًا.

وهكذا كانت حياة صديقي الراحل الدكتور عبد الرزاق قدورة. وإذا كانوا يقولون ساعة لك وساعة لربك، وساعة للحب وساعة للحرب، فقد كان معظم الساعات عنده للبحث والعمل والفكر. وكان من القلة القليلة النادرة، هؤلاء الذين لا فرق عندهم بين النظر والعمل. ومع أنه - رحمه الله - كان من محبي النكتة ومتذوقيها وصانعيها، فقد كان جادًّا وجديًّا حتى يخيل لمن لا يعرفه في العمق أنه لا علاقة له بالفكاهة.

عرفته عام ١٩٥٥، ولم يكن زمن طويل قد مضى على عودته من بلجيكا حيث نال الإجازة في الهندسة الكهربائية في جامعة (لييج) وقد عرَّفني به صديقي الراحل الآخر إلياس مرقص الذي كان زميله في ديار الفلمنك.

ويوم كان الاثنان ما يزالان يواصلان دراستهما الجامعية هناك، فقد عاشا ظروفًا صعبة غاية في قسوتها، ذاك أن حاكم سورية حينذاك من وراء - وراء

(١) صحيفة تشرين ٧/ ٨/ ٢٠٠٧.

العقيد أديب الشيشكلي قطع عنهما المعونة المالية، مع من يشبههما في موقفه السياسي المعارض لنظام العقيد في ذلك العهد، ذاك أنهما كانا قد نجحا في بعثة للدراسة العليا على حساب الدولة.

وهكذا اضطر عبد الرزاق وإلياس للاشتغال في أعمال يدوية كي يتمكنا من مواصلة الدراسة والعيش في بلاد الغربة.

وقد حدث مثل هذا لعدد من الشبان السوريين الذي كانوا يدرسون في الجامعات الأوروبية.

وأتذكر في هذه المناسية الصديق الراحل الآخر عمر السباعي - وزير المواصلات السابق - فقد اضطرته تلك الظروف إلى العمل عتالًا في باريس، وحدثني بمثل هذا الحديث أستاذنا الموسوعي الدكتور عبد الكريم اليافي.

فهذا ما جرى له عندما اندلعت حوادث الحرب العالمية الثانية، فتقطعت به السبل وحرم العون المالي وهو في العاصمة الفرنسية، ضمن بعثة لدراسة العلوم الرياضية والطبيعية.

سألت عبد الرزاق قدورة في ذلك اللقاء الأول عن نذير الذي زاملته في دار المعلمين، وكان من نجوم المجتمع والظرف فقال: أخي الشقيق. وإذ سألت أيضًا عن عبد القادر الذي كان في صف الشهادة الثانوية فقال: وهذا شقيقي أيضًا . وللحديث صلة.

[تتمة الحديث نشر بتاريخ ٩/ ٨/ ٢٠٠٧]

في ما أذكر فإن كتاب (القراءة) للمرحلة الإعدادية أو المتوسطة في الأربعينيات كان عنوانه (الطرف)، وعلى الرغم من أنني كنت وقتها في الصف

الرابع الابتدائي في مدرسة (أبي العلاء المعري) بالقيمرية، فقد كنت أتناول هذا الكتاب من محفظة أختي الكبرى بين وقت وآخر لأطالع فيه. ومازالت في الحافظة منذ تلك الأيام هذه النتفة الشعرية:

نَفــسُ عِصــامٍ سَــوَّدَت عِصــاما
وَعَلَّمَتــهُ الكَــرَّ وَالإِقــداما
وَصَــيَّرَتهُ مَلِكًــا هُمامــا
حَتّــى عَــلا وَجــاوَزَ الأَقوامــا

وقيل وقتها إن (العصامية) أتت من نسبتها إلى هذا الرجل.

تذكرت هذا وأنا أستجمع أفكاري وخواطري عن الصديق الراحل الدكتور عبد الرزاق قدورة، وأرى أنه من القلائل، على المستوى العلمي والثقافي، هؤلاء الذين يستحقون هذه الصفة. أضف إلى هذا أن في سلوكه عناصر تصلح أن تجعل منه قدوة للأجيال ونموذجًا يحتذى في أعين أرباب الطموح النظيف الجميل. ولئلا أمعن في الحديث النظري أود تقديم مثال عملي من سيرة عبد الرزاق، ذلك ما جرى له وهو في صف البكالوريا العلمي. كان والده المرحوم إبراهيم ضابط شرطة متقاعدًا، لكنه لم يكن (فهلويًّا) كما هو دارج هذه الأيام، فما كان أمامه سوى راتبه التقاعدي ومنزل مستأجر في شارع خالد بن الوليد.

كان هذا الرجل مضطرًّا أن (يرشّد) الاستهلاك في كل شيء، لكي يمدد راتبه على أيام الشهر، وهكذا فإنه كان في تمام الساعة التاسعة مساء يطفئ الأنوار الكهربائية في المنزل جميعًا. فماذا يفعل عبد الرزاق، وهو المضطر إلى السهر حتى ساعة متأخرة من الليل لمواصلة الدراسة، والامتحان على الأبواب؟

كانت خطوط الترامواي الكهربائي ماتزال عاملة على خطوط دمشق، وأطولها خط المرجة دوما، فقطع عبد الرزاق تذكرة شهرية تخوله الركوب دون الدفع (اشتراك: *Abonne*). وهكذا أمسى كلما أطفئ النور في الدار، ينسل نحو ساحة المرجة، ليركب الحافلة ذاهبة آيبة، وهو يقرأ على ضوئها. وظل رحمه الله يذكرني كلما لقيته بما كتبته عنه في هذه الحكاية قبل حوالي ثلاثين سنة، دون أن يمل من شكري مبتسمًا.

وذات يوم، فيما هو رئيس جامعة دمشق، أهداني أحد الشعراء ديوانه المطبوع، ففوجئت بأن مقدمته كانت بقلم عبد الرزاق قدورة. لقد قيّم الديوان بمعرفة عميقة في الشعر والأوزان والبلاغة والنحو والصرف، مثلما يفعل أي ناقد أدبي محترف صناع. لهذا لم أفاجأ عندما غدا عبد الرزاق عضوًا في مجمع اللغة العربية، كما لم أفاجأ حين اختير دوليًّا ليكون نائب مدير عام اليونسكو التابعة للأمم المتحدة... لكنني فوجئت بأن وطنه لم يستفد منه كعالم ذرة، نال قبل سنوات عديدة درجة الدكتوراه في الفيزياء النووية في جامعة بريستول.

* * * * *

الفصل الثالث

مقتطفات من آثار
الدكتور عبد الرزاق قدورة

كلمة الدكتور عبد الرزاق قدورة
في حفل استقباله عضوًا في مجمع اللغة العربية[1]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سيدتي وسادتي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

قبل خمسة عشر عامًا أكرمني أعضاء المجمع فانتخبوني، وأولو الأمر فأجازوا ذلك. فالشكر لهم جميعًا. رحم الله الراحلين وحفظ الباقين، واليوم أجيء، على استحياء في ذَرى أستاذي المهندس وجيه السمان، جزاه الله خيرًا، وذرى الأستاذ الأمين العام

وقيدتُ نفسي في ذراك محبَّةً ومن وجد الإحسان قيدًا تقيدا

لأذكر بعض مناقب المرحوم الأمير جعفر الحسني الجزائري. «أعد منها ولا أعددها».

شاءت حكمة المولى العليّ القدير أن يذكر بكرم دمشق، بنت القرون الأربعين، وواحة المروءة والياسمين، فجعل مجمعها يُحل مهاجرًا محل مهاجر، حمى الله دمشق وأهلها، وأبقاها مأوى للملهوفين، وبارك جبلها جبل المهاجرين.

ما تشرفت بلقاء الأمير، فسعيت إلى بعض من عرفوه، وقرأت شيئًا مما كتبه أو كتب عنه، وأعانني على ذلك الأستاذ الدكتور شاكر الفحام نائب

(١) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٦٦، الجزء الأول، الصفحة ١٤٤.

رئيس المجمع، والدكتور مكي الحسني، والأستاذ بشير زهدي، والدكتور عدنان البني. ونقلت ما تعلمت، فإن أصبت فأحمد الله وأشكر لمن علموني، وإن أخطأت فأتوب إليه وأرجو ألا يؤاخذوني.

ذكرى الأمير هي ذكرى الأصول. فنسبه يرقى إلى شيخ المجاهدين الأمير عبد القادر الجزائري، ثم يسمو إلى خير الخليقة ﷺ. وحياته قضاها مع الآثار أصول التاريخ. والأصول هي فقار العلم. تنبئ عن الأرض والسماوات كيف خُلِقَتْ، وعناصر المواد كيف طُبِخَتْ، وأحياء الكون كيف نشأت، وعشيرة الإنسان كيف انتشرت. وبلادُ العرب هي منبت الأصول: فعلى جانبي البحر الأحمر، الذي ما برح يَنْشَقُّ منذ آلاف آلاف السنين، تتباعد الكتلتان اللتان تحملان مشرق الوطن ومغربه. وعليهما دار التي ولدت أجداد الإنسان جميعًا قبل مئة ألف عام، وعليهما البيت العتيق، وموضع الرسالات، ومنبع الحضارات، ومنطلق الهجرات. فبلاد العرب سويداء الأرض، ولو أنهكها تعاقب الأيام ونزوات الزمان. وفي قلبها الشام وقومها الأبرار:

ما هان جار لهم مذ رَوَّضوا بردى ولا استقرَّ عدوٌّ في ربى الشام

فلا عجب أن يقف الأمير حياته، وهو سليل الأصول، على أصول التاريخ.

وذكرى الأمير هي ذكرى الآفاق يستشفها، ويستبينها، ويعد نفسه للقائها، بالتمرس بعلوم العصر، والتزود بلغة الفرنجة، والعناية بتراث الأمة.

عاش الأمير وفيًّا للأصول متطلعًا للآفاق، خاشعًا أمام المصدر، جسورًا تلقاء المصير.

هجرةُ أجداد الأمير من المشرق إلى المغرب، ثم من المغرب إلى المشرق، قصة الماضي والمقبل، وانسياب الزمان إلى هذا من ذاك، لا يسير القهقرى أبدًا.

وتلك معضلة أعيت الفلاسفة، وتجرأ عليها الآن العلماء، وستبدي لنا الأيام أيهما يفلّ الآخر. ثم هي قصة الهاجس الذي يوسوس للناس بالرحيل، يهتف في الولايات المتحدة، في القرن الماضي: «يا فتى غَرِّبْ»، ويهمس اليوم بمثل ذلك لأبنائنا وبناتنا فيستجيبون وما منا إلا وله في الغرب حبيب.

ولد الأمير جعفر بن طاهر بن أحمد بن الأمير عبد القادر الحسني الجزائري في مزرعة والده في ضاحية دمشق في الساعة التاسعة عربية من صباح يوم عشرين ذي القعدة سنة ١٣١٢ للهجرة الموافق للرابع عشر من شهر أيار ١٨٩٥م. وأرَّخ لولادته عضو المجمع الشيخ طاهر الجزائري فقال:

لقد وافى الزمان بنجم سعد ... به صبح الهنا والبشر أسفر
فقال الحال الشرف المعلّى ... لدى التاريخ حيّ الفضل جعفر

ودرس الأمير في مدرسة الآباء العازاريين في دمشق، ثم انتقل في سنة ١٩١٠ إلى المدرسة العلمانية في بيروت، وحصل منها في سنة ١٩١٤ على شهادة الدراسة الثانوية. ثم نشبت الحرب العالمية الأولى فأبعدته الحكومة العثمانية مع أسرته إلى بلاد الأتراك وخلَّت سبيله في سنة ١٩١٨ فعاد إلى دمشق.

وفي سنة ١٩٢٠ أصبح أمينًا لدار الآثار التي أنشأها المجمع العلمي العربي في دمشق قبل ذلك بعام. ثم أُوفد، بفضل المجمع، إلى مدرسة اللوفر، فحصل منها، بعد ثلاث سنوات، على شهادته في علم الآثار الشرقية القديمة. ودرس أيضًا، في الفترة نفسها، اللغات السامية القديمة في جامعة باريس، فأتقن منها التدمرية وسواها. وعاد بعد ذلك إلى عمله في دار الآثار. وفي سنة ١٩٢٨ أصبح محافظًا لها بعد أن انفصلت عن المجمع واستقلت في الإدارة والمال. وألحقت بالأمير أيضًا إدارة حديقة تدمر الأثرية، فسعى في إعادة تنظيمها،

وإزالة ما فيها من دور بالية، ونقل سكانها إلى مساكن جديدة بنيت لهم في قرية حسنة. ثم بنى الأمير دارًا جديدة للآثار هي الموجودة اليوم في جوار إدارة جامعة دمشق. وافتتح المقر العتيد في سنة ١٩٣٦ عند انعقاد معرض دمشق، وافتتاح ثانويتها الكبرى المسماة اليوم ثانوية جودة الهاشمي. وأصبح الأمير مديرًا عامًّا للآثار في فجر الاستقلال الكامل سنة ١٩٤٧. وانتهى عمله فيها في سنة ١٩٥٠. وقضى فترة من سنة ١٩٥١ محافظًا لجبل العرب. وكان الأمير قد انتخب عضوًا في المجمع سنة ١٩٤٢، وأصبح عضوًا في لجنته الإدارية في السنة التالية، وجدد انتخابه فيها مرارًا. وانتخب سنة ١٩٥٦ أمينًا عامًا في المجمع، وبقي كذلك إلى وفاته رحمه الله.

لبى الأمير نداء ربه صباح يوم الثلاثاء الواقع في الرابع من جمادى الأولى ١٣٩٠هـ، الموافق للسابع من تموز من سنة ١٩٧٠. ونعاه، مع الناعين، ابنه الوحيد الأمير طاهر بن الأمير جعفر الحسني الجزائري. رحمه الله رحمة واسعة، وجزاه جزاء الصالحين الطيبين.

كان الأمير عالمًا ينجز الأبحاث ويحررها، ويكتشف الآثار ويرممها، ويدير المؤسسات وينظمها. أشرف على إصلاح كنيس صالحية الفرات، ومدفن يَرْحاي التدمري، وقصر الحير الغربي الأموي، وآثار تدمر، ومسرح بصرى الشام. وبحث عن الآثار في تربة قرية جوبر وتربتَيْ طَفَس وخِسْفين. واشترك في مؤتمرات عالمية وعربية مخصصة للآثار. وقد كتب، رحمه الله، كتبًا قيمة بالعربية والفرنسية منها: «دليل مختصر لمقتنيات دار الآثار الوطنية في دمشق»، طبع سنة ١٩٣٠ (بالعربية)، ومنها: «دار الآثار السورية في دمشق»، طبع سنة ١٩٣١ (بالفرنسية). ومن أبحاثه بحث عنوانه: «وزنتان إسلاميتان أمويتان»

(بالفرنسية)، ومنها «نقود إسلامية وأوزان زجاجية جديدة» (بالفرنسية). وقد حقق الأمير كتاب «الدارس في تاريخ المدارس» للنعيمي في جزأين ونشره. وله في مجلة المجمع مقالات عديدة تملأ الإشارة إلى مواضعها في المجلة ثلاث صفحات. وكثير منها يعرض كتبًا علمية صادرة بالعربية والفرنسية في الفترة الواقعة بين سنة ١٩٢٥ وسنة ١٩٧٠. وعمل الأمير مع الأمير مصطفى الشهابي والأستاذ عز الدين علم الدين التنوخي والدكتور عدنان البني والدكتور أبي الفرج العش في مراجعة معجم المصطلحات الأثرية الذي نقله إلى العربية الأمير يحيى الشهابي.

أسلوب الأمير صافٍ سلس، فيه بلاغة الإيجاز، تتلألأ الأفكار فيه وتتضافر، فيتألف من اجتماعها كلام مقنع جذاب. كتب، رحمه الله، في فضل الآثار: «يتعذر على المرء مهما سمت مداركه وعظمت مواهبه أن ينطلق في عمله من العدم. بل هو يحتاج كأي صانع بسيط لعدة ومادة. وعدةُ المشتغل بالعلم هو ذاك التراث الذي خلفه لنا السلف لننتفع به في يومنا وغدنا»، ثم يقول: «إن من الجحود أن نزهد بماضينا وألا نتطلع إلا إلى حاضرنا ومستقبلنا، وأن نُعرض عن حقائق الماضي ونعلق مصيرنا بأوهام المستقبل».

أبحاث الأمير في الآثار نصيبُها نصيب كل ما يكتب في العلم: يشيخ كما تشيخ الحسناء:

لو فكر العاشق في منتهى حسن الذي يسبيه لم يَسْبِهِ

أما الأدب فهو كالتمثال الرائع أقوى على مغالبة البلى من الكائن الحيّ. ولكن هذا لا يضير الأمير جعفر، فأئمةُ العلم يلاقون مثل ذلك. وكتاب نيوتن الذي أسس الرياضيات والفيزياء في هذا العصر أصبح، بعد ثلاثمئة عام من

نشره، وكأنه من قوم عاد. ولكن يبقى له فضل الريادة ونفاذ البصيرة. وعندما نقرأ اليوم محاضرة للأمير جعفر، ألقاها قبل ستين سنة، نعجب بعلمها الغزير وبيانها الناصع. ففي هذه المحاضرة، التي وصف فيها شعوب سورية القديمة وآثارها، كتب، رحمه الله، أنه منذ أن وضع الألماني ڤنكلمان أسس علم الآثار القديمة، بتأليفه كتاب تاريخ الفن، «أصبحت المجموعات الأثرية مكتبة يرجع إليها بعد أن كانت من جملة المتاع تزين بها القصور». ويقول الأمير جعفر، بعد ذلك، إن التاريخ كان أدبًا يجمع الأخبار، ويدس فيه ما يخدم الحكام. ثم صحح ذلك مؤرخو العرب كالطبري وأبي الفرج وابن الأثير وابن خلدون وابن عساكر، فامتازت مؤلفاتهم بالصدق والدقة. وتوسع علماء الغرب في ذلك وعمدوا إلى باطن الأرض يستنطقون دفائنها، وهؤلاء هم علماء الآثار. وقال أحدهم ڤولني: «إن مهمتنا أصعب من مهمة علماء الطبيعيات لأننا لا نشتغل مثلهم بأجرام ملموسة... بل نعمل كهيئة تحقيق لديها حوادث... نقلها إليهم بعض شهود العيان... وهؤلاء المُحدِّثون يتكلمون لغات مختلفة قد تلاشت فيتطلب منا تعلمها».

والأمير جعفر واع للفضيلة الأولى التي يتحلى بها عالم الآثار، فهو يقول عنه: «وقد يخطئ الأثري في استنتاجه، ولكنه لا يتعمد تشويه الحقائق»، ثم ينتقل إلى لب موضوعه فيقول: «نال الشام قسط وافر من هذا الأبحاث... وأول بعثة رئيسية وطئت بلاد الشام هي البعثة الإفرنسية التي رافقت الحملة الإفرنسية في سنة ١٨٦٠».

وينتقل الأمير جعفر إلى عهد ما قبل التاريخ فيقول إن العلماء اختلفوا في تحديد مدته «فمنهم من يقول من ١٠٠ إلى ٢٠٠ ألف سنة، ومنهم من يقول من

٦ إلى ٨ آلاف سنة. تعتمد الفئة الأولى على تكوين طبقات الأرض والهواء، وتعتمد الثانية على نظريات دينية تأييدًا لما جاء في التوراة عن تاريخ الخليقة. فلا يمكننا أن نهمل نظريات علم طبقات الأرض وقد ثبت أن طبقة الأرض كانت منذ مئات الألوف من السنين صالحة لحياة البشر، كما أنه لا يمكننا إلا التسليم بما جاء في الكتب المنزلة (وهنا يبدأ دور علم الآثار عسى أن يوفق بين النظريتين، والعلمُ لا ينافي الدين)».

أقول: كان أسقف إنكليزي قد زعم أنه حسب لحظة خلق الكون، مستندًا إلى ما بين يديه من مصادر، فقدرها بالسنين والأشهر والأيام والساعات، قبل ستة آلاف سنة تقريبًا. واليوم نعلم أن الأرض موجودة منذ أربعة آلاف ألف ألف سنة. وإن من النجوم ما يزيد عمره على ذلك بأربع مرات. أما عمر الكون كله فقد كان يقدر بأنه عشرون ألف ألف ألف سنة. غير أن نتائج السنة الحالية تدل على أنه أصغر من ذلك بمرتين، فتصبح بعض النجوم أَسَنَّ من الكون الذي يحويها!! وهذا ما لا يطيقه المنطق، ويجعل علماء الفلك في حيص بيص، وهو دليل على سرعة نمو العلم، فكثيرًا ما تبطل النتائج قبل أن يجف حبر كتابتها.

يقول الأمير جعفر بعد ذلك: «سورية مهد ثلاث ديانات يدين بها اليوم معظم البشر وهذه الديانات لم تكن ابنة ساعتها، بل هنالك عوامل مهدت لها السبل مدة قرون عديدة قبل ظهورها، ويهم العالم أن يعرف تطورها قبل نشوئها... وقد أدركت جمعية الأمم هذا الأمر... ولذلك اشترطت في... صك الانتداب... حماية العاديات». وينتقل إلى وصف بعض آثار سورية فيقول: «معظم البنايات الأثرية... مثل بعلبك وتدمر وجرش وبصرى الشام ومادبا هي حديثة العهد بالنسبة لقدم حضارة سورية، ويغلب عليها تأثير الفن اليوناني

والروماني والبيزنطي، وقد ثبتت هذه البنايات على طوارئ الأيام لأن بناءها من الحجر الصلب المنحوت، بخلاف البنايات التي قبلها فقد درست لأنها كانت من الطوب المجفف، وهذه البنايات هي معابد وهياكل ومدن لها شهرة عالمية لأنها بالحقيقة إحدى معجزات الفن المعماري».

ويذكر الأمير جعفر آثار معبد آشوري قرب منبج كان يقصده الحجاج من جميع أنحاء سورية، ثم يقول عن جبيل إن المصريين ذكروها منذ سنة ٣٠٠٠ ق.م، وكانوا يستوردون منها الخشب اللبناني لصنع سفنهم أو يصنعونها فيها. وكان أهل جبيل يعبدون أدونيس ويزعمون أنه «خرج للصيد في جبال لبنان فوثب عليه خنزير وافترسه عند نبع نهر إبراهيم حيث نرى إلى الآن نقوشًا ورسومًا تشير إلى هذا الحادث، وقد أطلقوا على هذا النهر اسم أدونيس تخليدًا لذكر معبودهم. ولكن موت أدونيس لم يكن أبديًا، بل كان يموت في فصل الخريف من كل سنة ويبعث في ربيعها، وكانوا يقيمون في ربيع كل سنة مأتمًا عليه تلبس نساؤهم ثياب الحداد ويجلن في شوارع جبيل باكيات يضربن صدورهن ويشققن جيوبهن حزنًا عليه. ولكن في اليوم الثاني ينقلب الترح فرحًا إذ يبعث أدونيس ويرتفع إلى السماء فتقام في المدينة معالم الزينة والسرور فيحلق النساء شعور رؤوسهن».

لولا خوفي من الإفراط لتلوتُ عليكم جملًا أخرى من كلام الأمير المنشور في مجلة المجمع وسواها، فأكتفي بما سبق.

كان الأمير، رحمه الله، رجلًا رضي الخلق، سمح المعاملة، رفيقًا بالناس. يعمل بيديه في إصلاح الآثار إذا دعت الحاجة، ويلقى زواره بوجه بشوش، وضيافة عربية هاشمية. إذا تعطلت سيارته في سفرة أثرية نزل مع النازلين

لإصلاحها. وإن أخطأ عامل قابله بالحلم، أو تعثر مجتهد مدَّ له يد المعونة. وكان يحمل عبء المسؤول وحده، ويحمي إخوانه العاملين معه. وكانت فيه، رحمه الله، مع ذلك كله، عادة المغاربة، وأنا منهم، في الحدة لا تدوم إلا ما يدوم البرق، ويأسف لها بعد ذلك. هو مؤسس هذا البنيان الشامخ الذي يضمّ علماء الآثار العرب السوريين الكرام. وكل من عرفه منهم، يشهد له بالفضل، ويقر له بالجميل، فهم، مثله، رجال مروءة ووفاء.

يعتريني اليوم، وأنا على عتبة المجمع، الوجل الذي ساورني عندما أبلغني أستاذنا ورئيسنا الدكتور حسني سبح، طيب الله ثراه، أني انتخبت عضوًا في المجمع. فقد تساءلت عندئذ، وإن لم أجرؤ على أن أذكر ذلك له، عما يستطيع مثلي أن يخدم به هذه الدار الكبيرة عندما كان المجمع شاملًا، كما كان عند تأسيسه، وسيرةُ الأمير جعفر خير دليل على ذلك. كان العاملون في فروع المعرفة المختلفة قادرين على أن يسهموا بما يستطيعون. ثم نمت مؤسسات عديدة تعمل كل واحدة في اختصاصها. ووقف المجمع نفسه على واجب لا يعلو عليه شيء هو الدفاع عن العربية. والخطرُ المحدق بها اليوم أشدّ مما كان قبل سبعين عامًا. فالعالم تضمه شبكة تزداد فروعها في كل يوم، وستجعله قريبًا قرية واحدة كما يقولون. ولسانُ هذه الشبكة الإنكليزية، وقناتاها اللتان تتسرب عبرهما إلى كل مكان هما العلم والإعلام. في كل سنة تتولد في الولايات المتحدة أربعة آلاف كلمة جديدة، أكثرها مما يخترعه العلماء في مخابرهم ومعاملهم، والشباب في مباذلهم، والدول الأخرى تجهد في أن تحمي نفسها من هذا السيل العارم. في فرنسا الآن وزير للغة الفرنسية، وآخر للعلاقات الثقافية، ومجلس أعلى يرأسه رئيس الجمهورية يختص بأمور الفرنسية والناطقين بها في

كل مكان، ويضم عددًا من غير الفرنسيين. ونحن نرى، واللوعة تكويننا، كل الجامعات العربية، إلا السورية ومن رحم ربك، تدرس العلوم بغير العربية. الحياة لا تحب الاستقرار، فهي أبدًا في مد أو جزر. وإذا لم يمتد التعليم بالعربية إلى غير سورية من بلاد العرب، فقد ينحسر عن معقله الحالي. وقبل ثلاثين عامًا قامت محاولة لقلب التعليم إلى الإنكليزية في بعض الكليات العلمية، وكادت تنجح لولا أن تصدى لها رجال مؤمنون، منهم بعض أعضاء المجمع. هل نرى يومًا قريبًا تترجم فيه الكتب العلمية الحديثة الصادرة بالإنكليزية، بسرعة وإتقان، لتعرض في السوق الجامعية التي فيها أكثر من ألف ألف طالب وطالبة. ليت قومًا من أصحاب الأموال يفطنون إلى ذلك، ويتحالفون مع أساتذة الجامعات العرب، لينجزوا ما نتمناه، ويفيد الطلاب خيرًا كثيرًا، ويكسب أصحاب الأموال ما يحبون كسبه. لو تم ذلك، لاستطاع مجمع دمشق، والمجامع العربية الأخرى، أن تضمَّ إلى مآثرها القديمة الجليلة، حسنة أخرى بخدمة هذا المشروع العربي الواحد. هذا حلم من أحلام اليقظة يفرّ إليه من يخشى الكابوس الأسود. أن يختفي لواء العربية في التعليم الجامعي العلمي في حصنها الحالي، لا قدر الله.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * * * *

كلمة الدكتور قدورة في افتتاح المؤتمر الأول للكتابة العلمية باللغة العربية[1]

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

أيها الأخوة الأفاضل. أكرمني معهد الإنماء العربي فأشركني في مؤتمركم بعد أنْ كنت وقفتُ نفسي على أدب الشيخ المتقاعد: العبادة والقراءة والتفكير، فأنا كعمر بن أبي ربيعة، كان تاب عن الشعر، ثم هاجه أسى مُحِبٍّ، فقال أبياتًا، وكَفَّرَ عن ذلك. وأدعو الله أن يقبل كَفَّارتي.

أقف أمامكم على استحياء لأني في امتحان. وعند الامتحان يُكْرَمُ المرء أو يُهان. قال نابليون: «ما خِفْتُ في معركة خوفي من الامتحان». لا تؤاخذوني على ما في كلامي من سذاجة وطول. الشيخ ساذج لأنه أقرب إلى الغيب، وأبعد من الواقع. قال شاتوبريان: «عيش الشيخ كَسُرى الليل، تُظلم فيه الأرض وتشرق السماء». والشيخ في هذا كالطفل. وقد تنفتح بصيرة الطفل، وهو لا يدري، لأمور تغيب عن البالغين. وأهل الشام يقولون بلهجتهم: «خذوا فالكم من أطفالكم». ولعل الشيخ كذلك. وقد أُمِرْتُ أن يدوم كلامي أربعين دقيقة، فأطعت وأنا وَجِل. فقد قال قائل: «ما سمعت خطيبًا إلا خَشِيتُ أن يطيل، إلا فلانًا فقد كنت أخشى أن يوجز». ومن لنا بفلان. وقال آخر: «إذا خطب خطيب فأحسن، أنصت له المستمع عشر دقائق، ثم فَكَّرَ في أموره عشر دقائق

(١) كلمة الافتتاح التي ألقاها ضيف الشرف الدكتور عبد الرزاق قدورة في المؤتمر الأول للكتابة العلمية باللغة العربية، بنغازي، ليبيا، ١٩٩٠.

أخرى، ثم بقي يلوم الخطيب في نفسه حتى ينتهي». ولذلك قسمت كلامي أربعة أقسام، يدوم كل واحد عشر دقائق. الأول خلاصة، والثاني شكر، والثالث أمل، والرابع حلم. فإن اكتفيتم بالخلاصة، وهذا رجائي، كان ما بقي من الوقت راحة، أو إذا شئتم نقاشًا. وإن أردتم سماع الأقسام الأربعة تلوتها على ألَّا تلوموني.

خير ما يُسْتَهَلُّ به خطاب كلام الله والرسول والخلفاء. فأتلوا عليكم منه الذي استلهمت منه ما أقول. قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣]. وقال جَلَّ جلاله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]. والناس في تعليم العلم بالعربية فئات ثلاث: الذين آمنوا، والذين لا يؤمنون، والذين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. والفئة الثالثة تُذَكِّر بالذين أُعْطُوا الغنائم بعد يوم حنين، ممَّنْ أسلموا حديثًا، ولم يُعْطَ الأنصار. رُوِيَ عن الرسول ﷺ أنه قال، والله أعلم، «وَجَدْتُمْ في أنفسكم يا معشر الأنصار لشيء من الدنيا تَأَلَّفْتُ به قومًا أسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم». (رواه الشيخان وآخرون).

كيف تُؤَلَّفُ هذه القلوب؟ ورد في نهج البلاغة منسوبًا إلى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب أنه قال، والله أعلم، «إِنَّ قومًا عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار، وإنَّ قومًا عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإنَّ قومًا عبدوا الله شكرًا فتلك عبادة الأحرار».

تؤلف القلوب بتلبية رغبتها أملًا بأن ترقى إلى مرتبة الشكر، فيصبح أهلها

يفعلون الخير لوجه الله وشكرًا له. أما الرهبة فهي، مع الرغبة، سلاح السلطان. «سيف المعز وذهبه». «إن الله يَزَعُ بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن». ولا حاجة لنا بالرهبة. فهي، كالباطل، لها جولة ثم تضمحل. وهاهي اليوم تنهار مع السلاطين الذين صَدَّقوا قول سان جست: «أنجب كل فن روائعه، إلا فَنَّ السلطان فما أنجب إلا الأهوال». كلامي إذن عن الذين آمنوا، والذين لايؤمنون، والمؤلفة قلوبهم. الذين آمنوا هم الذين أحبوا العربية، ورَعَوْها حَقَّ رعايتها، فاستحقوا الشكر. والذين لا يؤمنون ليسوا بيننا اليوم، فلا نذكرهم إلا بالدعاء لهم. والمؤلفة قلوبهم هم الجمهور الأعظم، موضع الأَمَل، ومحور الحلم.

الشكر لكم أيها الأخوان الكرام، أعضاء المؤتمر، الذين لَبَّيْتُم النداء وانتصرتم للعربية، ولليبيا المجاهدة التي ترعى المؤتمر، ولجامعة العرب الطبية التي تستقبله، ولمعهد الإنماء العربي الذي ينظمه، ولشركائه الذين يؤازرونه. والشكر للأبرار الطيبين الذين رفعوا لواء العربية منذ القرن الماضي، وتناقلوه، جيلًا بعد جيل، حتى يومنا هذا.

وُلِدَت الجامعات العربية الجديدة في أوائل هذا القرن، وتكاثرت، ولله الحمد، حتى قارب عددها المئة. ولا تزال تدرِّس العلوم بغير العربية، إلا من رحم ربك. فماذا يقول في ذلك الذين نأمل تألف قلوبهم؟ هم يُفَضِّلون التعليم بالعربية، ولكن يخشون صِعابه. وهم يعرفون بيت أبي الطيب:

تريدين لُقْيَان المعالي رخيصةً ولا بُدَّ دون الشَّهْدِ مِنْ إبَرِ النَّحْلِ

وقول الآخر:

يُحِبُّ الْمُثَنَّى سَماعَ المديح ويُشْفِقُ من صِلَةِ المادِحِ
كَبِكْر تحب لذيذ النكاح وتَفْرَقُ من صَوْلَةِ الناكحِ

فمَذهب هؤلاء هو: فلنهيّئ المراجع العلمية العربية بالآلاف، وَلْنَضْمَنْ تجديدها السريع، ولْنَتَّفِقْ على المصطلحات، ثم لنبدأ في تعليم العلم بالعربية، وقد اتُّخِذَتْ في ذلك توصيات لا تُحصى، لو احتاجت إلى مدافن لَغَطَّت الأرض، ولكنها روحانية بلا رفات. هذا المذهب شبيه بمن أراد أن يُزَوِّجَ ابنه بنت السلطان، فقال هذا أمر قد أنجزت نصفه: فأنا وابني راضيان، ولم يبق إلا رضاء السلطان وابنته. أو الذي يحب أن يتعلم السباحة، ولكنه لا ينزل إلى الماء خوفًا من الغرق. الأمل المعقود على إخواننا المؤلفة قلوبهم هو أن يقبلوا النزول إلى الماء، لا ليغرقوا فيه، حماهم الله، بل ليتمرسوا بادئين بالضحل، ومستعينين بأدوات العوم وبأهل الخبرة، حتى يشتد ساعدهم فيسبحوا كالأبطال. ولكن كيف يقتنعون بالبدء؟ التعليم بالعربية مصيره مصير التوازن بين عزم القادة ورضا الأساتذة. والعزم مُيَسَّر، وإنْ تفاوت مضاؤه. فينبغي أن يصبح رضا الأساتذة كاملًا، أي أن يكون لهم من ورائه نفع أكيد.

هنا يأتي الحلم الذي هو مشروع عربي للترجمة العلمية يشترك فيه الأساتذة العرب فيكسبون من ورائه شيئًا. عدد المشاريع التي اقترحت في الماضي أكثر من الهمِّ على القلب كما يقولون. فهذا يدلي بدلوه في الدلاء. وهو لا يطلب من الحكومات المدد، بل يموِّل نفسه من موارده.

الحساب التالي تقريبي لأنَّنا لَسْنا في مرحلة الدقة. ولذلك نستخدم فيه كلمة (بضع) أو (بضعة) للدلالة على عدد بين الثلاثة والتسعة. ونقيس المال

بالدولار. والدُّخول المالية في البلاد العربية مختلفة فنعتمد الأوسط. أساتذة العلوم العرب يبلغون بضعة آلاف. لو أمكن، بقدرة قادر، أن يترجم، في كل عام، كتاب علمي جامعي متفق عليه، في كل فرع من الفروع العلمية الخمسة الكبرى، يكون صالحًا لطلاب السنة الأولى، ومنح كل أستاذ يقبل تدريسه ألف دولار في العام، لنهض تعليم العلم بالعربية نهضة مباركة. كلفة المشروع بضعة ملايين من الدولارات في العام، ومنها نفقة ترجمة الكتب ونشرها. من أين تأتي؟ عدد الطلاب العرب الذين يَدرسون العلوم في السنة الأولى يزيد عن مائة ألف. فإذا اشتروا كلهم أحد الكتب الخمسة. كَلَّفَهُمْ ذلك ما هو قريب من عشرة دولارات في العام لكل منهم.

مُنًى إِنْ تكن حقًّا تكن أحسن المنى وإلا فقد عشنا بها زمنًا رَغْدا

قال زياد بن أبيه: «لا يصلح آخر هذا الأمر إلا بما صلح به أوله». فلنستوح سلوكنا من تاريخ الإسلام. بدأ الإسلام ضعيفًا مضطهدًا، يدعو إليه الرسول والذين آمنوا. ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥] ثم نصر الله المؤمنين، وبدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، فتألف الرسول ﷺ قلوب بعضهم حتى تمكن فيها الإسلام وأصبحت العزة لله ورسوله والمؤمنين. فلما قُبض الرسول ﷺ إلى بارئه، وارتدَّ البعض، أَدَّبَهُمْ أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، تأديب العصاة، ولم يقبل في دين الله هوادة.

هذا شأننا اليوم مع العربية. والخطر الذي يتهددنا ماحق. فقد أنجانا الله من الغزو العسكري، ونحن اليوم هدف الغزو الفكري. لَمَّا يئس ديغول من الانتصار على المجاهدين الجزائريين، عَزَّى نفسه وقومه بأن قال: «لقد أُخْرِجْنا من الجزائر. وكذلك خرج الرومان من بلادنا قبل ألف عام ونيِّف. ولكنهم

ملؤوا عقولنا بأفكارهم. فكانوا هم المنتصرين. فإذا بقيت ثقافتنا وحدها في عقول الجزائريين، فنحن المنتصرون».

هذه خلاصة كلامي، وقد أدركتني الدقائق العشر، فأسكت عن الكلام المُباح، وأتلو قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

شُكْرٌ

الأمة العربية والإسلام على مسرح التاريخ منذ آلاف السنين. فلئن كانت (بَدْرُ) نورنا الساطع، فتاريخنا قديم. أول بيت وضع للناس، الذي نحجّ إليه كل عام، بناه سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل، عليهما السلام: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧ – ١٢٩]. وهذا أمر يَذْكُرُه قديمُنا وحديثنا.

وقد قال الأستاذ سليمان العيسى:

وأبعد نحن من مضر ... ومن عبس نعم أبعدْ
حمورابي وهاني بعل ... بعض تراثنا الأخْلَدْ
ومن زيتوننا عيسى ... ومن صحرائنا أَحْمَدْ
ومنا الناس، يعرفها ... الجميع، تعلموا أَبْجَدْ

وقد قرأتم في إحدى الدراسات الممتازة المقدمة إلى هذا المؤتمر وصفًا للآثار القديمة التي ترجع بالعربية إلى الماضي السحيق. ونحن لا نقول ذلك تعصبًا

وغُلُوًّا. فقد تأدبنا بأدب القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣]. وسِرْنا على سُنَّة الرسول ﷺ الذي روي عنه أنه قال، والله أعلم،: «الناس كلهم سواء كأسنان المشط». ونحن نعلم أن من المحتمل أن سكان أوروبا الحاليين ما دخلوها غازين، كما كان يعتقد حتى الآن، قادمين من شمال البحر الأسود، بل تقدموا فيها زارعين، يمضي كل جيل جديد فيها قُدُمًا. فَغَرَّبُوا هم، وشَرَّقَ أخوان لهم حتى بلغوا الهند والسند. فإذا صح ذلك، تكون لغاتهم، سليلةُ اللغة الهندية الأوروبية القديمة، أُخْتَ اللغة البديعة التي وُلِدَتْ منها العربية وأخواتها. بل نحن نعلم أن بعض أهل الرأي يقولون، وعندهم على ذلك الحجج والبراهين، إن البشر الحاليين جميعًا، سلالة امرأة واحدة عاشت في إفريقية الشرقية قبل مئة ألف عام ونيف. فنحن نحب العربية لا بغضًا باللغات الأخرى، ولكل واحدة بهاؤها وروعتها، ولكن لأنها عطر تاريخنا، وخليلة أجدادنا، والنجم الساطع الذي اهتدت به أمتنا في ليلها المظلم، والجرس البديع الذي ترنمت به عندما امتشقت الحسام، وما تزال، لتدفع عن أرضها الغالية وترابها المقدس. فالشكر للعربية والويل لمن يمتهنها.

والشكر لمن صانوها وحفظوها مسلمين وغير مسلمين. وأحب أن أذكر من هؤلاء البستاني واليازجي وصرُّوف وإخوانهم وأبناءهم لِأَدُلَّ على أن حب العربية جمع بيننا جميعًا: عربًا ومسلمين، وعربًا غير مسلمين، مسلمين عربًا، ومسلمين غير عرب. ولكل مجتهد نصيب. الشكر لمن صاغوا الكلمات السائغة مثل: سيارة، وهاتف، وإذاعة، وسواها، وجهدوا في أن تشيع في الناس.

والشكر لمجمع اللغة العربية في مصر، قلب العرب وكنانتهم، ولمجمع اللغة العربية في دمشق، جنة الأزهار والمروءات، ولمجمع اللغة العربية في بغداد، فخر المدائن وسليلة المجد، ولمجمع اللغة العربية في عمان، أفتى المجامع وأكثرها حماسًا. الشكر لهم على ما أبدعوه. وندعو الله أن يجعل في كل بلدٍ عربي مجمعًا للغة العربية، وأن يكون أحدها في القدس، في جوار المسجد الأقصى، أولى القبلتين، وثالث الحرمين، وأن تتحد هذه المجامع في مجمع عربي شامل، يكون من دعائم وحدتنا المقبلة بإذن الله.

والشكر لجامعة الدول العربية على ما فعلت، ولمنظمتها العربية للتربية والثقافة والعلوم، ولمكتب تنسيق التعريب، وللعاملين فيها جميعًا؛ فقد نظموا مؤتمرات التعريب، ونشروا قوائم المصطلحات، وأقاموا مشاريع الترجمة، وفعلوا خيرًا كثيرًا.

والشكر لمن دَرَّسوا بالعربية العلوم، وما يزالون يفعلون، على ضيق في اليد، ونقص في السند، وصعوبة في العمل. ولمن فعلوا ذلك، في الماضي، بهمة ومضاء، ثم خلف ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا﴾ [مريم: ٥٩].

وأستميحكم عذرًا في أن أذكر بَلَدَين عربيين ذكرًا خاصًّا، لا تعصبًا لبلد على بلد، والعياذ بالله، وكيف يفعل أحدنا ذلك، ونحن قد تعلمنا، مع القراءة والكتابة، نشيد الشاعر العربي رحمه الله:

بـلاد العـرب أوطـاني مــن الشــام لبَغْــدانِ
ومـن مِـصْرَ إلى عَـدَنٍ إلى نَجْـــدٍ فَتَطْـــوانِ

إلى آخر النشيد. وإنما أذكرهما لأن لهما عليّ فضلًا خاصًّا. فأولهما ليبيا، بلد آبائي وأجدادي، التي هاجر منها جدي وأبي عندما أُخْرجوا من ديارهم بفعل الطاغوت. فالشكر لليبيا المجيدة التي عجمتها المحن فما زادتها إلا صرامة في الحق، ولينًا للأهل، ونصرة للعرب. وثاني البلدين سورية التي احتضنت كل عربي لجأ إليها حتى أن جبل عاصمتها المنيف هو جبل المهاجرين، والتي لم تفرق بين أحد من أبنائها، تليدًا كان أم طريفًا:

ما هان جار لهم مذ رَوَّضوا بردى ولا استقر عدو في ربى الشام

أذكر من أبنائها الذين خدموا العربية الأمير مصطفى الشهابي، رحمه الله، الذي وضع المصطلحات في العلوم الزراعية، فأبلى في ذلك بلاءً حسنًا، والأستاذ المهندس وجيه السمان الذي يؤلف ويترجم منذ نصف قرن، مدَّ الله في عمره، والذي تعلم منه الفيزياء جيلي ومن لحقه، والأستاذ الدكتور هيثم الخياط، الذي ورث العلم عن أبيه، فزاد فيه كثيرًا، وألَّفَ مع إخوانه الأطباء العرب «المعجم الطبي الموحد»، والأستاذ الدكتور عدنان الحموي، مدير التحرير في «مجلة العلوم» المترجمة عن أحسن مجلة علمية عامةٍ في الدنيا هي «سينتفيك أمريكان».

ذكرتهم لأني أعرفهم، «أهل مكة أدرى بشعابها». ولكن أرض العرب غنية بأمثالهم ممن قصة حبهم للعربية تسحر الألباب. وإني لأذكر عالمًا قديمًا من علمائنا الأمجاد، كان من أصل غير عربي، وبلغ من حبه للعربية أن قال: «والله لأحب إليّ أن أُهْجَى بالعربية من أن أُمْدَح بالـ(وذكر لغته الأصلية)». رحمه الله وكلّ من أحبوا العربية كما أحبها.

مِنْ واجبي الشكر لشعب عربي قاسى في سبيل لغته ودينه، وأرضه وأصله، أفظع الاضطهاد، فقابله بأعنف نضال وأروع جهاد هو شعب الجزائر. كان المستعمرون يفعلون كل ما يستطيعون لمحق اللغة العربية، ومنع أهلها من دراستها. فلما تحقق الاستقلال بفضل الله وهمة المجاهدين، كان كثير من المواطنين، ومن بينهم قادة، لا يعرفون العربية، فلا يستطيعون قراءتها ولا الكلام بها. ومع ذلك اعتمدوا العربيّة، من أول يوم، وحتى يومنا هذا (وندعو الله ألا تنجح الردَّة) في الإدارة والتعليم بكل مراحله، وفي كل مرافق الحياة. واستعانوا في ذلك بإخوانهم العرب، فَلَبّوهم. وأذكر أن أحد إخواني من أبناء الجزائر، وكان المستعمرون أسروه فعذبوه حتى احتاج إلى الاستشفاء بعد الاستقلال، صمم على أن يتعلم العربية، وكان لا يعرف منها إلَّا النزر اليسير، وهو في خلال ذلك مسؤول كبير في وزارة التربية في عهد التأسيس وتوسع التعليم. فنجح في ذلك نجاحًا مكنه من أن يحضر ـ ندوة نظمتها الإذاعة المرئية الجزائرية، وكان في الندوة أجانب لا يتكلمون العربية بل الفرنسية، ومترجم يترجم لهم. وظننت أن أخي الجزائري سيتكلم الفرنسية التي يتكلمها ببلاغة ورشاقة وفن. فإذا به يتكلم العربية، وكان أحسن من تكلم بها من المشاركين في الندوة. فالشكر لهؤلاء الأبطال الذين أدركوا أن من غايات الاستقلال كان استرداد العربية من الذين أسروها. فهل نتخلى عنها في عهد الاستقلال؟

أمَل

في عام ١٩٤١، أفلتت البارجة الألمانية الضخمة (بسمارك) من طوق الحصار الذي فرضه عليها الأسطول الإنكليزي عندما كانت في مرفأ فرنسي ـ، وانطلقت إلى المحيط الأطلسي تعيث فيه فسادًا. فجمع تشرشل قادة الأسطول،

وطلب منهم أن يُدَمِّروها. فبدأ هؤلاء يشرحون له كيف سينصبون لها المكائد، ويُعدّون لها الكمائن. فقاطعهم تشرشل وقال: «افعلوا ما شئتم. كل ما أريده هو أن تغرقوها». فقالوا: «سمعًا وطاعةً»، وفعلوا. وأنا عندما أسمع ما يجيب به الأساتذة العرب أولي الأمر في بلادهم عندما يطلبون إليهم تدريس العلم بالعربية، فَيُعَدِّدون ما يلزم، وما يستحسن، وما يُفْضَّل، أتمنى لو يقول لهم أولو الأمر: «افعلوا ما شئتم. دَرِّسوها».

تعليم العلم بالعربية يَفلُّ في عضده أمران: حيرة الأساتذة. وشك الطلاب، ومن ورائهم الأهل. كان بعض الهازلين يقولون في الجزائر أيام زخمة اعتماد العربية (وندعو الله ألَّا تكون قد ضعفت، فقد قرأنا في الصحف ما يقلق، ورأينا احتجاج الجمعية الشعبية لنصرة اللغة الوطنية العربية): «إذا أردت لأولادك الآخرة فعلّمهم بالعربية، وإذا أردت لهم الدنيا فعلِّمهم بالفرنسية». فهناك إذن شك، واعٍ أو غير واعٍ، في صفوف الطلاب، يخشون أن يكون تعليم العلم بالعربيّة، تعليمًا من الدرجة الدنيا، يضعهم، بعد تخرجهم، تحت من تعلموا بغير العربية. ولا يزول هذا الشك، أو يضعف على الأقل، إلا إذا وجدت المراجع العلمية العربية العديدة الصالحة.

وحيرة الأساتذة أيضًا مشروعة مفهومة. فأكثرهم دخله قليل، وعمله كثير، يُطالَبُ بالتدريس والبحث، ويُشْرَكُ في الاجتماعات واللجان، ثم يقال له أن يعلِّم بالعربية، وليس فيها الكتب الكافية الحسنة. فقُطْب الرّحى إذن هو وجود الكتب. ولقد أُلِّفَ منها وترجم الكثير. ولمعهد الإنماء العربي في ذلك فضل كبير. ونرجو أن يحدثنا عن مصير كتبه.

ولكن أكثر الكتب يبقى حبيس البلد الذي نشر فيه، لا يعرفه سواها، بل إن بعضه يبقى حبيس جامعته أو ما هو أضيق من ذلك، وخاصة إذا كان الكتاب مؤلفًا، لأن هذه طبيعة الإنسان، والأستاذ إنسان لا يحب أن يُدرِّسَ ما كتبه غيره إلا إذا كان رائعًا في الذروة، أو كان حسنًا وكان له منه نفع. وما تزال الكتب تصدر طبعًا، أكثرها في البلاد التي تعلِّم العلم بالعربية، ومنها المُؤلَّف والمُتَرْجَم. وقد كانت لمجمع اللغة العربية الأردني تجربة طيبة، ستسمعون عنها في هذا المؤتمر، سلك فيها سبيل العمل الجماعي الصالح، فجعل الأساتذة ينتقون الكتب ويترجمونها، فنجح في ذلك بعض النجاح. ولكن عاكسه صغر السوق، ثم هؤلاء القراصنة الذين انقضوا على الكتب التي راجت، فزوروها وباعوها ظلمًا وعدوانًا. وقد بيّن الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة، رئيس المجمع، أن دراسة أجراها الأساتذة برهنت على أن الطلاب الذين درسوا العلم بالعربية، وقد تيسر فيها الكتاب اللازم، بلغوا في ذلك أضعاف ما بلغه إخوانهم الذين درسوا العلم بغير العربية، ونجحوا نجاحًا جميلًا. ونهض بعد ذلك جمع غفير من الأساتذة في الجامعة التي قامت فيها التجربة، فطلبوا تعميم تعليم العلم بالعربية، وكتبوا في ذلك كتابًا وقَّعوه جميعًا، وقدموه إلى أولي الأمر وإلى الرأي العام. وقد نسمع من إخواننا الذين يحضرون هذا المؤتمر، ويعرفون الموضوع، آخر ما صارت إليه الحال. هذه تجربة جماعية مجيدة. وهناك محاولات أخرى بعضها فردية، وبعضها جماعية. ففي بعض الجامعات في المملكة العربية السعودية إدارة للترجمة. وقد قرأت أخيرًا كتبًا بديعة ألَّفها أو ترجمها حديثًا أساتذة أفاضل في جامعات المملكة العربية السعودية وأحد هؤلاء الأخوة

الأكارم يحضر مؤتمرنا اليوم وسنستمع له بشوق، لنثني على إنجازه هو وأخوانه، ولنفرح لما لقوا من توفيق، ونحزن لما صادفهم من مصاعب.

ولكن المشكلة الكبرى تبقى صغر السوق، فالكتاب الذي لا يباع منه، على الأقل، ألف نسخة، لا يمكن أن يغطي نفقته إلا إذا بيع بسعر فاحش لا يتحمله الطلاب. هذا هو العمل الذي لا يستطيع أن يقوم به إلا الناشر المتمكن من مهنته، الذي يعرف قيمة الكتب، ويميز الغثّ من السمين، ويعلم، في آن واحد، أن ما لا يُباع لا يعيش. وفي هذا المؤتمر دراسة جميلة في هذا الموضوع. أعتقد أن هذه هي العقدة الأساسية: تحقيق سوق كافية للكتب.

أما موضوع المصطلحات فأنا، وإن كنت لا أستهين به، فإني لا أُهَوِّلُه. وفي هذا المجال يمكن أن يقوم ألف مذهب ومذهب، فلينطلق أصحابها جميعًا ثم يحكم الله بينهم في ما كانوا فيه يختلفون. فقد ينادي البعض بأن تنقل المصطلحات من أصلها الأجنبي كما وردت. وقد يصرّ آخرون على ترجمة كل مصطلح وإيجاد المقابل العربي له. وقد يذهب غير هؤلاء وأولئك إلى حدود شتى في النقل (وهو ما سماه العرب بالتعريب أي كتابة الكلمة الأجنبية بالأحرف العربية وإدخالها في اللغة). فمنهم من يختار هذه الحدود ضيقة، ومنهم من يجعلها واسعة. المهم هو التعليم بالعربية ثم تتوازن الأمور. وأظن أن من واجبنا التساهل في وجود هذا الاختلاف، لأن المؤمن هَيِّن لَيِّن، ولأننا نريد أن نضم إلى صف العربية أكبر عدد ممكن.

ومع هذا، فلي رأيي في التعريب (أي نقل المصطلحات كما وردت) كما لكل امرئ رأيه. وخلاصته أن بعض التعريب أمر لا مفر منه، ولا عيب فيه.

وكل اللغات تتبادل الكلمات. فكلمة «بسْترو» في فرنسا، التي يعرفها كل إنسان ومعناها «حانة الخَمر»، يَرْوُوْن أنها من كلام جنود القيصر الروسي ألكسندر الأول الذي احتل جنوده باريس بعد هزيمة نابليون، فكانوا يدخلون إلى الحانات على عجل ليشربوا صائحين بسترو، بسترو، ومعناها بالروسية (بسرعة). والأمثلة على ذلك عديدة. ولغة المتفوقين هي التي تغزو عادة سواها، سواء أكان هذا التفوق بالحرب أو بالعلم أو بالاقتصاد، وكلنا يشهد اليوم هيمنة الإنكليزية.

وفي هذا المؤتمر دراسات بديعة ضربت أمثلة على كلمات أخذتها العربية في الماضي من سواها، ثم تَبَنَّتْها فأصبحت كبناتها السابقات، ومنها كلمة (صراط) إذا صح أنها مُتَبَنَّاة. ولكن هذه الكلمات التي تدخل في أية لغة من سواها هي كملح الطعام. فكما أن الطعام بلا ملح ممجوج، بل وينقصه شيء أساسي للصحة (إلا لبعض المرضى)، فكذلك الإكثار منه ممجوج وضار.

وحجة من يتحاشون التعريب إلَّا عند الضرورة - وأنا منهم، وهذا هو مذهب مجمع اللغة العربية في مصر، وسنَّته الحسنة التي سنَّها - هي أن الكلمة المعرَّبة لا توحي إلى أذهان الناشئين شيئًا يعينهم على الفهم.

وقد رَدَّ على هذه الحجة أستاذان فاضلان في دراسةٍ مقدمة إلى هذا المؤتمر، قرأتها فأعجبت بها كثيرًا، ودعوت لكاتبيها بالخير، فضربا مثلًا مصطلحًا كيميائيًا هو «هتروسايكلك»، وقالا إن الفتى الإنكليزي، أو الفتاة، من الذين يبدؤون الدراسة الجامعية لا يفهمه إذا لم يشرح له، فعجبت من ذلك، لأن هذا المصطلح مكون قسمين ثانيهما (سايكل) هو اسم الدراجة الشائع بين الأطفال،

وأولهما (هترو) وهو مستخدم في كثير من الكلمات الشائعة ومنها مثلًا: «هتروسكشوال»، التي لا أظن فتيان الإنكليز وفتياتها يجهلونها ولا مقابلتها «هوموسكشوال». فالفتى الإنكليزي، أو الفتاة الإنكليزية، الذين يسمعون كلمة (هتروسايكلك) يوحي لهم هذا بشيء كثير، ليس هو المعنى طبقًا ولكن المدخل إليه.

أنا لم أقصد بذلك تجريح رأي الأستاذين الفاضلين صاحبي الدراسة. فأنا مستعد في سبيل تعليم العلم بالعربية، أن أدعو كل من يقبل أن يسمعني إلى استخدام (هتروسايكلك) وسواها من الكلمات، وما أطول بعضها في مجال الكيمياء. وأظن ذلك انعكاسًا لولع اللغة الألمانية ببناء الكلمات المركبة الطويلة من كلمات أبسط. وكلنا يعرف مرتبة العلماء الألمان في الكيمياء في النصف الأول من هذا القرن. فلنقبل هذا وسواه، لمن يريده، ولنفعل ما فعله هنري الرابع عندما ترك مذهبه البروتستانتي، وأصبح كاثوليكيًا يقبل بالقدَّاس. فقد كان على وشك أن يفتح باريس، ويصبح ملك فرنسا المقبول، وأدرك أن ذلك لا يتيسر له دون أن يكون على دين أكثرية الشعب، فقال كلمته المشهورة: «من أجلك يا باريس، أقبل القدَّاس». وأنا أقول: «من أجلك يا عربية، نقبل هتروسايكلك». وأدعو الله ألا يحوجنا إليها. ولا أعتقد أننا محتاجون إليها، فنحن نقول إنها كلمة واحدة لا تجوز ترجمتها بكلمتين، لأن في ذلك صعوبة بعد ذلك في تصريفها.

إن «هترو سايكلك» هي اجتماع كلمتين وفقًا لقواعد لغتها. ونحن لنا قواعد لجمع كلمتين، دون الدمج، منها الإضافة. ولا أدعي طبعًا سهولة إيجاد

مصطلح واحد يقابلها، فكلمة (هترو) يمكن أن تترجم على الأقل بإحدى كلمتين: «مختلف، آخر». وكلمة (سايكل) على الأقل بإحدى كلمات ثلاث «دورة، حلقة، دائرة». وينتج من ذلك على الأقل ستة إمكانات. ولكن هذه الحيرة موجودة أيضًا لمن يضع المصطلح الأجنبي الأصلي. ولولا أن الوقت قد فات لضربت الأمثلة على اضطراب المصطلحات أحيانًا في العلوم في اللغة الإنكليزية.

الذي نحتاج إليه إذن في تعليم العلم بالعربية هو إقدامٌ كإقدام الذين أدخلوا العربية في اليونسكو أولًا في عام ١٩٦٨، ثم في منظمة الأمم المتحدة ووكالاتها الاختصاصية. ولو انتظر هؤلاء «الرُوَّاد» توفر الشروط كلها لما دخلت العربية إلى اليوم إلى الحقل الدولي. ولولا ضيق الوقت لرويت لكم عن تلك الأيام المجيدة الكثير. وقد أَعَدَّ أخ لنا كريم دراسة لهذا المؤتمر يذكر فيها المرتبة الرفيعة التي بلغتها اللغة العربية في الأمم المتحدة، فله الشكر على كلامه الدقيق.

حِلمٌ

في عام ١٩٥٥ تعرفت مجلة «سينتفيك امريكان»، وكانت قد عادت إلى الصدور حديثًا، بعد غيبة، وذلك بعد مئة عام تقريبًا من تأسيسها في عام ١٨٤٥، ومنذئذٍ وأنا أقرؤها في كل شهر، وأحلم بأن تترجم يومًا إلى العربية. قال سمرست موم، الروائي الإنكليزي، إن كل كاتب في جوفه كتاب واحد، يخرجه على الناس، مرّة بعد المرة، كل مرة في حلَّة أخرى. وربما كان لكل امرئ منا في حياته فكرة أساسية واحدة يَجْتَرُّها أيضًا. السيد ميشيل دبري، رئيس وزراء فرنسا الأسبق الذي كتب دستورها الحالي، ديدنه الدائم، تناقص عدد

سكان فرنسا والحد من ذلك، فيذكره في كل مكان وزمان. وأنا هَوَسي هو تعليم العلم بالعربية. فمنذ بدأت أستطيع لقاء من يستطيعون تحقيق ذلك، بدأت أرجوهم المساعدة على ترجمة هذه المجلة. فحدثت إخواني في سورية، ولكن «العين بصيرة واليد قصيرة». وحدثت إخواني في المملكة العربية السعودية، فأثنوا على الفكرة، وفكروا فيها، ولكن كانت لديهم مشاريع أعجل منها. وبلغ بي الأمر أن تَشَرَّفْتُ يومًا بأن استقبلني صاحب السمو الملكي، ولي عهد المملكة الأردنية الهاشمية، الأمير حسن المعظم، حفظه الله. وقد كان ذلك في مطار باريس الذي هبط فيه مدة قصيرة في طريقه إلى الولايات المتحدة ورجوت سمو الأمير فوعدني خيرًا. في هذه الأثناء تعرفت السيد جيرارد بيل، ناشر المجلة، ودنيس فلاناغان، مدير تحريرها، وهما اللذان أعادا إصدارها بعد غيبتها فحدثتهما بالأمر، وكانا قد بدءا يتفقان على إصدار تراجم للمجلة في لغات مختلفة، فرحَّبا بالفكرة. وكنتُ قد أَعْدَدْتُ مشروعًا مفصَّلًا أَحمله معي في حقيبتي في حلّي وترحالي. ثم حدث مرة أن كنت مسافرًا في طائرة، فالتقيت على غير موعد، زميلي وأخي الكريم الأستاذ الدكتور عدنان شهاب الدين، الذي كان عندئذٍ مديرًا عامًا لمركز الكويت للأبحاث العلمية، فأخبرته بالموضوع، وأعطيته صورة من المشروع، فقال لي إنه سيحدث بالأمر مؤسسة الكويت للتقدم العلمي. وبعد مدة علمت أن المؤسسة اتفقت على المشروع مع جيرارد بيل، وصدرت «مجلة العلوم»، وهي الترجمة العربية لسينتفيك أمريكان. ولم أرْوِ هذه القصة لأزعم لنفسي أي فضل في صدور «مجلة العلوم»، فترجمة سينتفيك أمريكان إلى العربية أمر من البداهة بحيث يفطن له كل من يفكر فيه.

واليوم تصدر سينتفيك أمريكان في تسع لغات. فلا بد أن لفكرة صدور «مجلة العلوم» ألف أب. وقديمًا قالوا: «للنصر ألف أب، أما الهزيمة فيتيمة».

أصحاب الفضل في صدورها هم الأبرار الذين أسسوا مؤسسة الكويت للتقدم العلمي. والأفاضل الذين يشرفون عليها اليوم وقرروا إصدار «مجلة العلوم»، والأكارم الذين يحررون هذه المجلة ومنهم أخونا الأستاذ الدكتور عدنان الحموي الذي ذكرت اسمه سابقًا، والذي يحضر هذا المؤتمر. غايتي من رواية هذه القصة أمران: أولهما هو أن الأحلام تتحقق أحيانًا، وثانيهما الاهتداء بالنجاح لتقليده.

نجحت «مجلة العلوم» لوجود المؤسسة التي تنفق عليها، والتي ما تزال، على ما أظن، تفعل ذلك، ثم لوجود الناشر الأجنبي الذي قدم الأصل. ولا أمل طبعًا في وجود من ينفق على مشروع عربي شامل للترجمة العلمية. فينبغي البحث عن ناشر أو أكثر من بين الناشرين الأجانب المشهورين في هذا المجال، وعددهم كعدد أصابع اليد الواحدة. أو اليدين على الأكثر، والبحث عمَّن يرضى بأن يَدْرُسَ السوق العربية للكتب العلمية، فإن اكتشف بأنها يمكن أن تكون رابحة دخلها.

لا تلوموني على هذه الفكرة التي قد تزعج البعض. أنا لا أحب هؤلاء الناشرين، ولا أبغضهم. كل ما أتمناه هو أن تصدر الكتب.

قبل الحرب العالمية الثانية وقعت الأزمة الاقتصادية التي تعرفونها، وكان حزب فاشستي فرنسي يوزع الحساء على العمال العاطلين عن العمل لاكتساب عطفهم. فكان بعض هؤلاء العمال الجائعين يشربون الحساء ثم يهتفون: «لتسقط الفاشية».

حتى يمكن للمشروع أن يربح ينبغي أن تباع الكتب فيه بالآلاف، أي في البلاد العربية كلها أو أكثرها. ولكي يتحقق ذلك لا بد من أن ينتقي الكتب الأساتذة العرب، ويترجموها هم، ويدرِّسوها لطلابهم. فيمكن مثلًا سلوك السبيل التالي:

إذا تبين لمؤتمركم الكريم أن هذا المشروع من أوهام شيخ كبير، سَكَتُّمْ عنه، فسقط إلى حيث لا رجعة. أما إذا رأيتم أن فيه بصيصًا من ضوء، فيمكن عندئذٍ سؤال الحكومات: هل تأذن بأن يعمل في أراضيها؟

هذه الاتصالات لا يستطيع أن يقوم بها إلا ناشر أجنبي، أو أكثر، قد تعاون معه تاجر عربي أو أكثر. فمشروع كهذا يتطلب أنواعًا من المهارة لا تملكها المؤسسات الحكومية هي مهارة التجارة. إذا رضيت الحكومات أو بعضها، أمكن سؤال الجامعات: هل تأذن في أن يجري المشروع ضمنها؟ فإذا قبل بعضها تم الاتصال بالأساتذة الذي يُدَرِّسون المواد العلمية الأساسية الكبرى؛ أي: الرياضيات، والفيزياء، والكيمياء، وعلم الحياة، والجيولوجيا، في السنة الأولى. ودُعَي هؤلاء الأساتذة إلى الاشتراك في استفتاء غايته تحديد الكتب الخمسة التي يختارونها في هذه الفروع. فيطلب من كل واحد أن يقترح خمسة كتب، وتُنتقى الكتب التي تنال أعلى الأصوات، ويُمنح الذي اقترحها جائزة، فإذا كانوا أكثر من واحد فبالقرعة، وإن لم يكن أحد فالأقرب، وهنا طبعًا يطلب من الفيزيائي مثلًا أن ينتقي كتابًا في علم الحياة أيضًا، في قائمته التي تحوي خمسة كتب، بغرض تقليل عدد من يقترح القائمة الصحيحة، وذلك مع أنه غير مختص في علم الحياة، فيستشير زميلًا له مختصًا في هذا الموضوع.

متى انتُقيت الكتب الخمسة تُعلن ترجمتها، ويُنتقى أكبر عدد ممكن من المترجمين الممكنين، العاملين في جامعات عربية مختلفة، في حدود معقولة طبعًا؛ إذ لا يعقل أن يترجم أستاذ أقل من عشرين صفحة مثلًا. ويُنتقى للكتاب مُراجع للتنسيق.

ولي مع إخواني أساتذة الفيزياء في جامعة دمشق تجربة في هذا الموضوع، فقد ترجمنا كتاب فاينمان المشهور في الفيزياء. واشتركنا في ترجمته جميعًا، إلَّا زميلين كانا يحملان مسؤوليات منعتهما من المشاركة. وكان بيننا مُراجع للتنسيق. وبيع الكتاب، بسبب شهرة مؤلفه، خارج سورية أيضًا.

أعود إلى المشروع المقترح فأقول: إنه متى تُرجم الكتاب يُطلب من الأساتذة الذين يقبلون بتدريسه أن يُعْلِموا الناشرَ بذلك، ويُعْلَمون بأن جزءًا من ربح الكتاب في بلدهم سيوزع عليهم بالتساوي. والغاية من ذلك طبعًا هي حثُّهم على تدريس الكتاب حتى يروَّج ويباع.

يمكن طبعًا أن يُنقد هذا المشروع من عدة وجوه. وهناك أخطار عديدة تتهدده، إذا قُيِّض له بدء التنفيذ، منها انقضاض قراصنة النشر عليه. يضاف إلى ذلك أن المشروع قد لا يكون اقتصاديًّا البتة، وإن كنت لا أعتقد ذلك. ولكن ما الحل غير ذلك؟

إلى متى ننتظر حتى نُعلّم العلم بالعربية؟ عندما أفكر في هذا المشروع أتذكَّر قول من قال: «كل فكرة تبدأ هرطقة وتنتهي مبتذلة». أتمنى أن أرى، قبل أن أموت، هذه الفكرة تصبح مبتذلة.

جمعنا في هذا المؤتمر حُبّان شريفان: حب العربية وحب العلم. وكلاهما

أساس لمستقبل أمتنا. فاللغة العربية هي عصب وجودنا. روي عن الرسول ﷺ أنه قال: والله أعلم، «ليست العربية لأحدكم من أب أو أم، إنما العربية اللسان». وعزة الأمة وعزة لسانها مترابطان.

كانت النكتة الشائعة في الخمسينيات من هذا القرن تقول: «إذا كنت تريد الحاضر فتعلَّم الإنكليزية، وإذا كنت تريد المستقبل فتعلم الروسية، وإذا كنت تتطلَّع إلى المستقبل الأبعد فتعلم الصينية». ولقد برهنت الأيام على كذب هذه النكتة كما تبرهن، كل يوم، على كذب من يزعمون استشفاف المستقبل. «لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني الضر».

وكل أناس يدافعون عن لغتهم، ويحزنون إذا تراجعت. قبل أشهر، حزن الناس في فرنسا عندما علموا أن مجلة معهد باستور الشهير ستصدر بعد الآن بالإنكليزية. هذا هو اليوم ميزان القوى. وفي ماضيها كانت لغتنا هي المهيمنة. فالإمبراطور فردريك الثاني، حاكم الإمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة، الذي عاش في القرن الثالث عشر بعد الميلاد، وكان بلاطه في صقلية، كان يتكلم العربية، ويقرؤها، ويفخر بذلك، ويغبطه عليه مِنْ حاشيته مَنْ لا يستطيع.

العربية اليوم مهيضة الجناح، وصاحب المروءة من أبنائها، هو الذي يحميها ويفديها. وبذلك أمرنا الله ورسوله. ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩]. اللهم اجعلنا جميعًا منهم، والسلام عليكم ورحمه الله وبركاته.

* * * * *

قمم العلم في عام ١٩٩٤
في أعين مجلة سيانس[١]

الأستاذ الدكتور عبد الرزاق قدورة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة على رسول الله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قال سليمان بن عبد الملك: «شَيَّبني صعود المنابر وخوف اللحن». وهذا هلع لا يزول مهما شاب الشعر وطال العهد بالمنبر. وقد يسوق صاحبه إلى المخازي كما فعل بخطيب المؤسسة الملكية الفار. وهذه المؤسسة اللندنية أعظم أمجادها أن فاراداي، أبا الكهرباء، كان فيها أجيرًا، ثم أصبح عليها أميرًا. وفيها اكتشف أسرار الكهرباء والمغناطيس التي تقوم عليها حياتنا اليوم.

تدعو هذه المؤسسة أهل العلم ليتحدثوا فيها، وتذاع بعض هذه الخطب. ولها سُنَّةٌ مؤكدة تقضي بدعوة الخطيب إلى العشاء قبل خطابه، ثم حبسه في غرفة مقفلة فيها ما قد يحتاج إليه بعد الأكل والشرب. ثم يفرج عنه بعد ساعة، ويساق إلى منبر الخطابة. هذه سنة سنّها فاراداي الذي كان دعا خطيبًا إلى العشاء. وبلغ من ذعر الخطيب، وخوفه من لقاء الجمهور، أن غادر المائدة بعد

(١) محاضرة ألقاها الدكتور عبد الرزاق قدورة بتاريخ ١٧ أيار ١٩٩٥ في قاعة المحاضرات بمكتبة الأسد، وطبعها مجمع اللغة العربية بدمشق ضمن مطبوعاته في كتاب (محاضرات المجمع في الدورة المجمعية ١٩٩٤-١٩٩٥).

الطعام بدعوى غسل يديه، ثم هرب. واضطر فاراداي إلى الكلام محله، وفعل ما ينبغي لكي لا يتكرر مثل ذلك في المستقبل. ولعل الأستاذ رئيس المجمع يعتبر بذلك.

يزيد من قلقي أن كلامي مُرُّ المَذاق ليست فيه حلاوة البلاغة، ولا طراوة الحكاية، ولا ضراوة السياسة. فأخشى أن تسرحوا بأفكاركم في جناتٍ أغلى وأحلى من أعراف علم الطبيعة.

عندما أسس اللورد ريث الإذاعة في بلده قال: إن غاية ما ترجوه الإعلام (أي نشر النبأ)، والتعليم (أي تفسير العلم)، والإمتاع (أي بث السرور). وهذا مرام كل متحدث، ولكنه كالأفق لا يدركه أحد مهما سعى إليه.

وقد أحببت، قبل أن أبدأ موضوع الجد، الذي أخشى أن يدخل إلى نفوسكم السأم، أن أروي قصتين من قصص أهل العلم، فيهما بعض الفُكاهة، فلعلهما تشفعان لما سيليهما، وتكونان كالنَّقْل يُشَهِّي الطعام.

القصة الأولى: عن عالم أمريكي من أصل ياباني اسمه نامبو يقولون عنه، لما خبروا من براعته وفطنته، أنه يرى اليوم، في ميدان العلم، ما يراه أقرانه بعد عشر سنوات، فهو كما قال أبو الطيب:

ذَكِـــيٌّ تَظنّيـــهِ طليعـــة عينـــه يـرى قَلْبُـه في يومـه مـا تـرى غـدا

وقال أحد أصحابه العلماء إنه فكر في أنه لو ذهب، وتحدث مع نامبو، لاكتسب شيئًا من علمه بما سيكون. ففعل ذلك، وحدثه نامبو أطيب حديث. وقال هذا الصديق أنه وجد ما قاله نامبو عميقًا غزيرًا، فشرع يفكر فيه، واستغرق ذلك منه عشر سنوات حتى فهم كل ما سمع.

القصة الثانية: هي قصة العلم المنشور والعلم المكتوم. فالعلم في أصله يعيش بالتواصل بين أهله، وبنشره على جمهورهم حتى يختبروه، فإما يصدقونه وإما يفندونه. أي إن العلم هو المعرفة المبذولة للناس. ولكن العلماء يجبرون أحيانًا، لأسباب تفرضها التجارة أو الحرب، على كتمان بعض ما يجدون أو كله. وقد حدث ذلك في ميدان الاندماج النووي الذي تحبس فيه المادة حبسًا شديدًا، بفعل أشعة الليزر، لإجبارها على الاندماج وتوليد الطاقة.

كان الأمريكيون يكتمون أكثر نتائجهم فلا يعلنون ما يفعلون إلا بمقدار. وقال ياباني يعنى بهذا الموضوع: «كان كتمانهم يلهبنا بالحَنَق، وإعلامهم يتركنا كالأيتام على موائد اللئام، فنتذكر المثل الياباني الذي يقول عن الشيء الذي لا يشفي الغليل أن صاحبه كمن يحك رجله عبر حذائه».

وهذا شبيه بما يقوله البعض من أن استخدام الحاجز للوقاية من مرض الإيدز كأكل الحلوى ملفوفةً بغلافها.

قبل أن أعدد قمم العلم في العام الماضي، أحب أن أذكر أمرين. أولهما لسان العلم. فكما أن لكل قوم لسانًا، فأهل العلم لهم لسانهم الذي يتخاطبون به. وهو لسان قد يكون عويصًا، لكنه بقدرته على التلخيص يستطيع أن يجمع فكرة واسعة في كلمة واحدة. ولذلك لا يستغني أهل العلم عن لسانهم هذا حين يتحاورون، فهو سبيلهم إلى الإيجاز والوضوح والدقة. ولكنه إذا كان خيرًا حين يبقى بينهم، فإن يصبح حاجزًا بينهم وبين الجمهور إذا استعملوه في حديثهم معه. ولذلك لن أستعمل العبارات العلمية، أو ما يسمى بالمصطلح، إلا إذا اضطررت إلى ذلك. والصعوبة أكبر في لساننا العربي؛ لأن كثيرًا من الكلمات العلمية الجديدة ليس له مقابل عربي شائع، أوله أكثر من مقابل.

الأمر الثاني هو أن حديثي عن قمم العلم مستقى من مجلة سيانس التي تصدرها الجمعية الأمريكية لتقدم العلم. وفي العالم مجلتان علميتان شاملتان، لهما المحل الأول، هما سيانس ونيتشر البريطانية. وهما تصدران كل أسبوع. وقد جرت مجلة سيانس منذ سنوات على تقليد ما تفعله مجلة تايم الأمريكية في نهاية كل عام من انتقاء الإنسان الذي كان أثره في العالم، في العام المنصرم، أعظم أثر، خيرًا كان ذلك أو شرًّا. وتسميه تايم إنسان العام، وتكتب عنه مقالة طويلة، وتضع صورته على الغلاف. أما سيانس فتنتقي ما تسميه جزيء العام، وتقصد بذلك أعظم اكتشاف علمي تم في العام المنقضي. وقد يكون هذا الاكتشاف مرتبطًا بجزيء أو قد لا يكون. ثم تذكر سيانس مع الاكتشاف الأعظم أخواته التسع التي تقاربه في الجلال ولكنها لا تدركه.

وأعدد الآن النتائج العلمية العشر الكبرى التي انتقتها سيانس، ثم أفسر كل واحدة منها بعض التفسير.

الاكتشاف الأول هو إصلاح استنساخ الرسالة الموروثة.

والثاني هو انتحار الخلايا.

والثالث هو اصطدام مذنب بالمشتري.

والرابع هو الشبكة التي تحيط بالعالم.

والخامس هو عمر الكون.

والسادس هو أسلاف الإنسان.

والسابع هو تنظيم نمو الكائن الحيّ.

والثامن هو المواد الكهربائية الجديدة.

والتاسع هو لَبِنَة المادة الأخيرة.

والعاشر هو دواء الكآبة الجديد.

وسأذكر في كل ميدان، شيئًا مما كان معروفًا قبل العام الماضي، ثم بعض ما اكتشف فيه.

* * * * *

وانتقل الآن إلى **إصلاح استنساخ الرسالة الموروثة**

في كل خلية، من كل كائن حيّ، رسالة موروثة من والديه، تحدد صفاته جميعًا.

والرسالة مكتوبة بلغة كيميائية رمزية مؤلفة من كلمات، في كل كلمة ثلاثة أحرف رمزية.

والأحرف منتقاة من مجموعة أحرف الهجاء في لغة الوراثة الرمزية التي فيها أربعة أحرف فقط.

وتُستعمل هذه الكلمات للدلالة على المواد الكيميائية التي يتألف منها الكائن الحي. وفي خلية الإنسان رسالة موروثة مكتوبة بثلاثة آلاف ألف ألف حرف. ولو كتب هذا النص في كتاب لملأ أكثر من ألف ألف صفحة.

في كل خلية توجد الرسالة الموروثة كاملة. ولكن الخلية لا تستنسخ الرسالة الكاملة وتنفذها، وإنما تستنسخ منها ما تحتاج إليه وتنفذه بانيةً بذلك ما يقضي به هذا القسم المستنسخ من المواد الكيميائية.

ويقع في الاستنساخ خطأ أحيانًا. فإذا لم يصحح الخطأ تولدت من ذلك أمراض كالسرطان بتواتر أكبر بكثير مما يحصل، وفسدت نسخة الرسالة

الموروثة من الوالدين، فاختل النوع واندثر. ولكن لو نسخت الرسالة الموروثة نسخًا أمينًا كاملًا دون أي خطأ، لما بقي هناك متسع للتبديل والتجديد، ولما نشأت أنواع وليدة تكون أقدر على الإفادة من محيطها من الأنواع الأقدم التي ولدت منها. فينبغي إذن ألا يكون إفراط ولا تفريط في الاستنساخ.

فالأمانة الكاملة تؤدي إلى الجمود، والاستهتار المُفرِّط يؤدي إلى الهلاك. وهذا ما تسعى إليه الجملة التي تقف نفسها على إصلاح الاستنساخ دون أن تبلغ في ذلك حد الإفراط. فهي عندما تنسخ الرسالة كاملة، وفيها كما قلنا ثلاثة آلاف ألف ألف حرف، لا يزيد خطؤها في ذلك عن ثلاثة أخطاء. «فاعتبروا يا أولي الألباب».

جملة الإصلاح موجودة في كل الكائنات الحية. وبين جملتي الإصلاح في نوع من الأنواع، كالإنسان، ونوع آخر، كالأرنب، شبه كبير وخلاف بَيِّن. وهذا الخلاف يفسر لماذا تكون بعض المواد الكيميائية مؤذية في نوع ومفيدة في نوع آخر. فالأسپرين يمسخ ذرية الأرنب، ولا يؤذي الإنسان بل يفيده، فيحمي من مرض القلب.

تصلح جملة الإصلاح كل خطأ يصيب الرسالة الموروثة. وقد يكون الخطأ عند الاستنساخ، أو من تلقاء نفسه، أو بفعل أذى آتٍ من خارج الكائن الحيّ سببه مادة كيميائية أو إشعاع. وهناك من يعتقد أن أحد أسباب الشيخوخة هو تراكم الأخطاء التي تعجز جملة الإصلاح عن إصلاحها.

هذا الاكتشاف الأكبر. وأذكر الآن التسعة الأخرى.

* * * * *

فانتقل إلى **انتحار الخلايا**

قد يتمنى بعض البشر الخلود، ولكن الخلايا أعقل. فهي متى حان الحين، تطلق من عقالها خطة كامنة فيها تؤدي إلى قتلها. وهي بذلك تُؤْثِر على نفسها أخواتها الخلايا المجاورة السليمة، وتمكنها من العيش والنمو، فتسدي للكائن الحيّ الذي تسكنه فضلًا عظيمًا، ومثله للمناعة في هذا الكائن. وفي العام المنقضي أعلنت نتائج عديدة كشفت الأجزاء الوراثية والكيميائية التي تقود الانتحار في خلايا كائنات حيّة كثيرة أدناها دودة الأرض وأعلاها الإنسان. ووجد الباحثون أيضًا أجزاء الرسالة الموروثة التي تكمن فيها خطة الانتحار. وإذا فقدت هذه الأجزاء في كائن حي تعرض للهلاك. فإذا حدث ذلك في ذبابة الندى تولدت في أجنتها خلايا مفرطة في غير أماكنها فماتت الأجنة قبل أن تُفَقِّس.

ووجد الباحثون أيضًا جزءًا آخر في الرسالة الموروثة يمنع خطة الانتحار من العمل. وهذا أمر ذو بال في دراسة السرطان، لأن الخلايا السرطانية، التي كان ينبغي أن تنتحر، تأبى ذلك لسبب ما. وهناك من الدلائل ما يشير إلى أن فائدة الإشعاع، وبعض أنواع الدواء في علاج السرطان، منشؤها أنها تشجع الخلايا على الانتحار بحَثِّها جزءًا من الرسالة الموروثة مختصًّا بالقضاء على الورم. وهناك دلائل جديدة أخرى على وجود صلة بين انتحار الخلايا والأمراض التي تصيب الأعصاب فتتلفها.

يعيش الكائن الحيّ بفضل ما فيه من خلايا مختلفة تعمل أعمالًا محددة. ومتى انتهى نمو هذا الكائن، أصبحت حياته رهنًا بالحفاظ على خلاياه المختلفة هذه وتجديدها عند الحاجة. فخلايا الدم تجدد دائمًا باستيلادها من خلايا أُمَّات،

وخلايا المناعة تزيد عند الحاجة، وتنقص عند زوالها. أما الخلايا العصبية فمقدرتها على التجدد محدودة، وأكثرها يعيش مع الكائن الذي توجد فيه ما عاش.

وكل نوع من الخلايا يتحدد عدده بالتوازن بين تكاثر الخلايا، الذي يزيد هذا العدد، وموتها الذي ينقصه. وتكاثر الخلايا مضبوط ضبطًا صارمًا. فهناك أكثر من مادة كيميائية في الجسم تحث التكاثر، وأخرى تثبطه. وفهم التكاثر، الذي تحسَّن في العقد الأخير من الزمان، أمر حيوي لإدراك طبيعة السرطان إدراكًا كافيًا قد يمكن من تفاديه أو علاجه.

وموت الخلايا أمر عويص. فكلُّ الخلايا، من الأنواع المختلفة في الكائنات المتعددة الخلايا، تستطيع، إذا لزم الأمر، أن تهلك نفسها. ويمكن لذلك أن ينتج من أمر آتٍ من داخل الخلية أو خارجها، وهو يسمح بالتخلص من خلايا فائضة عن الحاجة، أو نامية نموًا غير سليم، أو مصابة بأذى في رسالتها الموروثة.

وتختلف الأوامر القاضية بانتحار الخلية من نوع من الكائنات الحية إلى نوع آخر، إلا أن الجزء من الرسالة الموروثة الذي يحوي الأمر بالانتحار هُو هُو، في صفاته الكبرى، في كل الأنواع، من الدودة إلى الإنسان.

وهناك فرق بين انتحار الخلية بمشيئتها هي وبين موتها بفعل سواها. فالموت هو نتيجة إصابة الخلية بأذى بالغ، يؤدي إلى اتساعها فانحلالها. وبالانحلال تفرز الخلية ما فيها في جوارها فيؤدي إلى التهابه. أما الانتحار فإنه يجري بسلام، لأن الخلية تنقسم إلى أجزاء تبقى مرتبطة بغشائها، وتأتي الخلايا المكلفة بإزالة الخبائث في الجسم، فتبتلع هذه الأجزاء، وتتلفها دون أن يحدث التهاب.

ويبدو أن بقاء الخلية على قيد الحياة في الجسم الذي تعيش فيه يحتاج إلى أن تتلقى رسالات من جيرانها تحثها على الاستمرار في الحياة. فإذا لم تتلق هذه الرسالات نحرت نفسها.

وتشير الدلائل الجديدة إلى أن الخلايا التي لا تنتحر، حين ينبغي عليها ذلك، قد تكون أحد أسباب عدد من أمراض الإنسان منها السرطان والأمراض التي تهاجم فيها جملة المناعة الجسم بدلًا من أن تحميه. ويقابل ذلك أن انتحار بعض الخلايا، حين لا ينبغي ذلك، قد يكون أحد أسباب بعض أمراض الإنسان الأخرى، منها مرض الأعصاب، وضعف العظام، والإيدز. فالدواء الذي يعين الخلايا التي ينبغي أن تنتحر على ذلك، ويمنع انتحار التي ينبغي أن تبقى على قيد الحياة، قد يشفي المريض.

* * * * *

أنتقل الآن إلى **اصطدام مذنب بالمشتري**

الشمس نجم وُلد قبل أربعة آلاف ألف ألف سنة من تراكم غازات (أكثرها الهدروجين أخف الأجسام وأبسطها) جذب بعضها بعضًا، كما تفعل كل قطعة من المادة بكل قطعة أخرى. وتجمَّع في الشمس أكثر المادة التي كانت في فضائها. أما الباقي فأصبح الكواكبَ السيارة التي تدور حول الشمس والتي عرف منها الأقدمون خمسة هي: عطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل. ثم اكتشفت بعد ذلك كواكب أخرى.

والأرض طبعًا كوكب سيار. ولأكثر الكواكب السيارة توابع، فتابع الأرض هو القمر. ولكن بقيت في فضاء المجموعة الشمسية مادة تجمَّع بعضها

في أجرام صغيرة أحدها إما كويكب (أي كوكب صغير) أو مذنب وهو مقدار من الجليد والغبار، يتوه في المجموعة الشمسية، وله ذنب ناشئ من فعل أشعة الشمس فيه. ولا يعلم إنسان عدد هذه الأجرام، وإن كان أُحْصِيَ من كل نوع من نوعَيْها عدد كبير. وبعض هذه الأجرام صغيرة جدًّا، وبعضها أكبر من مدينة. والصغيرة منها أكثر من الكبيرة عددًا بكثير. وكلما ازداد حجمها قلَّ عددها.

ومن الأجرام ما يقوده مساره إلى الاصطدام بالأرض، فإذا كان صغيرًا احترق في أعالي الجو الأرضي وتبخر. ويكون أثره نورًا يظهر فجأة في السماء ثم يخبو. وورد في القرآن المجيد: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠]. أما إذا كان الجرم المصطدم بالأرض كبيرًا كبرًا كافيًا، فإن الجو الهوائي لا يعود قادرًا على تبخيره كله، فتسقط منه على سطح الأرض قطعةٌ كبيرة أو صغيرة. وقبل بضعة أعوام سقط في الولايات المتحدة جرم صغير بلغ بعضُه سطحَ الأرض وصدم سيارة فآذاها.

أما الأجْرام الأكبر فيمكن أن تحدث أضرارًا فادحة. ففي مطلع هذا القرن سقط في سيبريا جرم كبير، في مكان مهجور، فأحدث حفرة كبيرة ما تزال مرئية، واحترقت الأشجار في دائرة كبيرة حول موضع سقوطه. ولو أنه سقط على مدينة لأحدث كارثة رهيبة. والجرم الكبير إذا اصطدم بالأرض، أعطاها طاقة تساوي الطاقة الناتجة من آلاف القنابل النووية.

هل يمكن أن يصطدم جرم كبير بالأرض فيحدث فيها ضررًا بالغًا..؟ هذا ممكن طبعًا، ولكن احتماله قليل. ويقل الاحتمال كلما كان الجرم أكبر والضرر أعظم.

على أن اصطدام أجرام عظيمة بالأرض أمر حدث كثيرًا في الماضي، وأشهرها الجرم الذي صدم الأرض قبل سبعين ألف ألف سنة (أي قبل خلق الإنسان، بل وقبل خلق أسرته أي الحيوان ذي الثدي). وقد أحدث هذا الاصطدام في الأرض ظلامًا لما أثاره من غبار ودخان، فحجب نور الشمس شهورًا عديدة، فهلك النبات الذي يتغذى من نور الشمس، ومات الحيوان الذي يأكل النبات، والحيوان الذي يفترس الحيوان. فانقرضت الأحياء جميعًا إلا ما رحم ربك. وأشهر الحيوان الذي هلك عندئذ، واختفى من الأرض، هو الزاحف المخيف (الدينوصور). وورد في القرآن المجيد ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴾ ﷺ [الدخان: ١٠]. وقبل بضع سنوات نشر فريق من العلماء دراسة قالوا فيها إنه إذا فُجِّرت على الأرض قنابل نووية عديدة، فإنها تثير من الدخان والغبار ما يحجب ضوء الشمس شهورًا طوالًا. وسموا ذلك الشتاء النووي، وقالوا إنه قد يقضي على الحياة على ظهر الأرض، ولو نجت من الإشعاع النووي. وبعد ذلك بدأ الرئيس ريغان خطته المسماة حرب النجوم. وزعم أنه سيحمي بها بلده من صواريخ العدو، فلا تبلغها أبدًا، أما هو فيفعل بصواريخه ما يشاء. وعندها كتب سفير الاتحاد السوفييتي في ألمانيا مقالة في مجلة درشبيغل قال فيها إنه إذا تيسر للغرب ما يشاء، وأحاط نفسه بسياج لا يُخْتَرَق، وأغلظ على السوفييت فلم يجدوا مفرًا، فإنهم يستطيعون أن يفجروا عددًا كبيرًا من القنابل النووية الضخمة في بلدهم، فيغطوا الأرض بغلاف من الغبار والدخان يقتل كل ما فيها، ويسيرون بذلك على خطة شمشون الذي قال: «عليَّ وعلى أعدائي يا رب».

وقوع جرم كبير على الأرض ليس إذن من الخيال العلمي، بل هو من صلب العلم، وإن كان احتماله أصغر بكثير من احتمال الكوارث الطبيعية الأخرى كالزلزال، والبركان، والطوفان وسواها. ولكنه إذا حدث، فإن آثاره قد تكون أخطر بكثير من الكوارث الأخرى مجتمعة. ولذلك أمرت إدارة الطيران والفضاء الأمريكية برصد السماوات لكشف أي جرم ذي بال يتجه نحو الأرض ويُخشى أن يصطدم بها، والأمل من وراء ذلك هو أن يتمكن أهل الأرض، إذا وجدوا جرمًا يفعل ذلك، من تحويله عن مساره ومنع الاصطدام. ويمكن أن يتم ذلك بتفجير قنابل نووية ذات استطاعة كافية قرب الجرم لتغيير مساره. وهذا أمر كان أول من أشار به أدوار تِلَرْ باني القنبلة الهدروجينية الأمريكية الأولى. إلا أن عددًا من العلماء الأمريكيين، منهم عالم الفلك الشهير كارل سيغان، نبهوا إلى أن هذا الدرع الواقي قد يُقْلَب سيفًا مصلتًا على بني الإنسان إذا غير البعض مسار جرم كان لن يصطدم بالأرض، وهذا شأن كل الأجرام إلا ما ندر، بأن يحدثوا قربه انفجارًا نوويًا يبدل مساره ليجعله يصطدم بالأرض، فيهلك الحرث والنسل مع هؤلاء المستميتين.

سقوط الأجرام السماوية على الأرض أمر عرفته هذه الأرض طيلة حياتها التي تدوم الآن منذ أربعة آلاف ألف ألف سنة. ومن الأجرام السماوية الكبرى التي صدمت الأرض ذلك الذي وَلَّدَ القمر.

وقبل عشرة أشهر سقط مذنب على كوكب المشتري، ورأى ذلك جمهور غفير من الناس في الإذاعة المرئية. ودرس علماء الفلك هذا الحادث فحصلوا منه على معرفة طيبة بالمشتري والمذنب. وسيبقون زمنًا طويلًا ينظرون فيما حصلوا

عليه من صور وقياس. وكان المذنب مؤلفًا من إحدى وعشرين قطعة منفصلة، اصطدمت كلها بالنصف غير المرئي من المشتري. وارتفعت من مواقع الاصطدام أنقاض بلغت علوًا يساوي آلاف الأميال. وظهرت على سطح المشتري، في مواقع الاصطدام، سلسلة من البقع الحارة الممتلئة بهباب الفحم.

ولا يزال الباحثون يتساءلون: هل كانت الأجزاء كبيرة أم صغيرة؟ وما مبلغ نفوذها في جو المشتري؟ وقد أكدت دراسة هذا الاصطدام أن المذنب مقدار من الجليد والغبار يرتبط بعضه ببعض بالتجاذب. ونفخ الاصطدام بعض جو المشتري فكشف أجزاءً منه كانت خافية. وظهر فوق سحب المشتري كبريت يدل على أنه موجود في سحبه الوسطى. وبلحاق الأنقاض الناشئة من الاصطدام، والعالية إلى أعْنان السماء. تمكن الباحثون من قياس سرعة رياح المشتري العليا. ولدى الباحثين الآن نتائج، تكتب ببضعة آلاف ألف ألف حرف، وسيدرسونها عقدًا من الزمان.

* * * * *

وانتقل الآن إلى **الشبكة التي تحيط بالعالم**

كل حين من الدهر يظنه أهله فريدًا بين أقرانه. ولكن زماننا هذا فريد حقًّا. فلأول مرة في تاريخ الإنسان، أصبح قادرًا على إهلاك أحياء الأرض، وصار الخبر ينتقل من مكان إلى مكان كلمح البصر، والمال يسيل من موضع إلى موضع بجرة قلم (أو بضغط زر).

ونحن الآن على عتبة زمان مقبل ستغطي فيه الأرض شبكة من الإعلام

تصل كل إنسان بكل إنسان، مهما بعدت الشُّقة، بأهون سبيل، وأقل نفقة. وقد طلعت بشائر هذه «القرية الشاملة» كما سماها ماك لوهان في الشبكة المسماة الإنترنت. وهي روابط بين آلاف الآلات التي تعمل عمل الحاسوب. وكانت أسستها وزارة الدفاع الأمريكية، في أيام الحرب الباردة، لتحمي بها الصلات بين آلاتها من نوع الحاسوب إذا دمرتها ضربة نووية مباغتة. ثم أعطتها لمؤسسة العلم الوطنية لترعاها. وكانت وقفًا على العلماء في أيامها الأولى يتبادلون بها الأخبار. أما اليوم فقد أصبحت لعامة الناس كافة، يدخلها من شاء، ويفعل فيها ما يشاء. ويستطيع الآن كل من عنده حاسوب صغير، وواصل يصله بالهاتف، أن يقتفي الكلمة، أو الصوت، أو الصورة إلى أي مكان في العالم. ويعمل الآن على هذه الشبكة، أو يلهو عليها، ثلاثون ألف ألف إنسان، قاطنون في ستين بلدًا أو أكثر. ويزداد عددهم بمقدار العُشْرِ في كل شهر. ولُباب هذه الشبكة هو قسمها الذي ما تزال مؤسسة العلم الوطنية الأمريكية تسوسه، والذي ازداد انتقال الإعلام فيه عشرة آلاف مرَّة عما كان عليه قبل عامين.

ولا يزداد عدد المرتبطين بهذه الشبكة فحسب، بل تتنوع أعمالهم وتتعدد أشغالهم. فمنهم العلماء طبعًا (فكلهم، إلا من حرم ربك، متصلون بهذه الشبكة)، ولكنهم بدؤوا يخشون أن يخرجهم من جنتهم هذه من دخل فيها من أقوام سواهم. ومن هؤلاء أهل التجارة، وهم الآن الثُّلث، وأساطين السياسة، والمحامون. بل إن منهم أصحاب الشر والفحش واللغو. وكلٌّ يعرض بضاعته، وينظر في بضاعة سواه. وتعمل الآن مؤسسة العلم الوطنية على نقل ما يخصها من هذه الشبكة إلى من يملكها ويستثمرها. ولكن الشبكة ستبقى،

بسبب بنيانها، عاصية على كل رقيب وناصح، عنوانها الفوضى، وسبيلها التكاثر، فهي سرطان قدره الوحيد أن يزداد، ولسان حاله:

ولذيـذ الحيـاة مـا كـان فـوضى لـيس فيهـا مسـيطر أو أمـير

وتخيل غدًا طفلك جالسًا أمام شاشته يسمع ويرى، ويكتب ويقول، ما تشتهي وما لا تشتهي.. حمانا الله وإياكم.

* * * * *

وانتقل الآن إلى **عمر الكون**

بنيان الكون سر يشغل الإنسان منذ القديم. وفي زماننا هذا كان الرأي الشائع أن الكون ساكن غير محدود. ولكن هذا ينقضه أمران؛ الأول: أنه إذا كان الكون ساكنًا، وكانت كل ذرة منه تجذب كل ذرة أخرى، فلماذا لا يَسقط بعض الذرات على بعض، لتجتمع كلها في نقطة واحدة. لحلِّ هذه المشكلة رأى أينشتاين أن التجاذب بين كل ذرات المادة، الذي يجعل الأرض تدور حول الشمس، والأجسام تسقط عليها، يوجد معه تناقر يمنع من انهيار المادة وتراكمها في موضع واحد. وسمى ذلك بثابتة الكون. وقد ندم أينشتاين على هذه الفكرة، وقال عنها أنها أشنع خطأ ارتكبه في حياته. هذه هي الصعوبة الأولى في فكرة الكون الساكن غير المحدود. والصعوبة الثانية هي أنه إذا كان الكون حقًّا غير محدود في كل مناحيه، فإننا إذا نظرنا في أي منحى من هذه المناحي، فلا بد من أن يلتقي نظرنا بنجم في هذا المنحى، بعيدًا كان أو قريبًا. وهذا يعني أن كل نقطة من نقط السماء فيها ضوء نجم. والشمس نجم من النجوم، وإنما تمتاز لأنها

قريبة منا. ولذلك تكون عندئذ كل نقطة من السماء، في الليل أو النهار، لامعة لمعان سطح الشمس. وهذا وضوحًا باطل. فما هو السبب؟

حَلَّ هاتين المشكلتين اكتشافُ تمدد الكون. إذ تبين أن النور الآتي من النجوم البعيدة منزاح في لونه نحو الأحمر، وهذا دليل على أن هذه النجوم تبتعد عنا ابتعادًا سريعًا. ذلك أنه إذا أصدر جسم اهتزازًا، والضوء اهتزاز، وتحرك مبتعدًا عنا أو مقتربًا منا، تغير ما يظهر لنا أنه تواتر اهتزازه، فكان هذا التواتر أصغر من قيمته الحقيقية إذا كان الجسم يبتعد، وأكبر منها إذا كان الجسم يقترب. ولون الضوء عنوان تواتر اهتزازه. والأحمر أقل تواترًا من الأزرق. فإذا نقص تواتر الضوء احْمَرَّ، وإذا ازداد ازْرَقَّ. فاحمرار الضوء الآتي من النجوم البعيدة دليل على أن هذه النجوم تبتعد عنا. وتبين بعد ذلك أيضًا أن سرعة ابتعاد النجوم متناسبة مع بعدها عنا. فإذا كان نجم أبعد من نجم آخر بمرتين كانت سرعة ابتعاد النجم الأول أكبر من سرعة ابتعاد النجم الثاني بمرتين. وهذا يعني أن كل النجوم يبتعد بعضها عن بعض ابتعادًا تتعاظم سرعته كلما كان البعد بين هذه النجوم أكبر. ومن ذلك نستنتج أن كل النجوم، التي تبتاعد بعضها عن بعض الآن، كانت كلها في مكان واحد قبل زمن نستطيع أن نحسبه بأن نقسم بُعد النجم على سرعته، فنعلم كم انقضى من الزمن منذ انطلاقه من هذا المكان الواحد.

هذه الفكرة هي فكرة القارعة الكبرى التي تقول أن الكون كله كان مجتمعًا في نقطة واحدة، تحوي كل مادة الكون، ثم انفجر وما يزال يتمدد منذئذ. هذا التفسير يحل المشكلتين: مشكلة استقرار الكون، ومشكلة السماء

المظلمة. فمادة الكون لا يقع بعضها على بعض لأنها ما تزال مدفوعة بفعل الانفجار العظيم الذي بدأ الكون، والسماء مظلمة لأن النجوم البعيدة بعدًا شاسعًا، ينزاح ضوءُها إلى الأحمر انزياحًا شديدًا يجعله غير مرئي.

فكرة القارعة الكبرى هي الرأي الذي اجتمع عليه العلماء جميعًا إلا نفرًا قليلًا منهم أشهرهم فرد هويل الذي اختار عبارة القارعة الكبرى ليسخر من هذا التفسير، لأن له رأيًا آخر لا نخوض فيه الآن إذ ليس في الوقت متسع.

قياس عمر الكون إذن رهنٌ بقياس أبعاد نجوم بعيدة جدًا، ورهنٌ بقياس سرعتها.

وحتى بضعة أعوام كان الرأي السائد أن عمر الكون قريب من عشرين ألف ألف ألف سنة. وكان هذا أمرًا مرضيًا لأن من النجوم ما يبلغ عمره بضعة عشر آلاف ألف ألف سنة. لكن بدأت منذ أعوام تظهر نتائج تدل على أن عمر الكون أصغر من ذلك، وأنه قد يكون عشرة آلاف ألف ألف سنة فقط أو أقل. وهذا طبعًا مستحيل؛ إذ كيف يكون عمر بعض الكون أكبر من عمره كله.

وفي العام الماضي قاست النظارة بُعْدَ عدد مما يسمى القناديل الفلكية، التي هي معالم على أرجاء الكون كالمعالم التي توضع على الطريق، فخلصت النظارة من ذلك إلى أن عمر الكون قد لا يزيد عن ثمانية آلاف ألف ألف سنة. وقاست نظارات أخرى موضوعة على الأرض بعد هذه النجوم فخلصت إلى النتيجة نفسها.

وكانت دقة القياس، قبل العام الماضي، تحدها ما يدخله الجو الهوائي من اضطراب في النور يسببه خفقان الهواء. وهذا أمر نجت منه النظارة الفضائية

لأنها تسوح خارج الهواء، ونجت منه النظارة الأرضية لأنها زُوِّدَتْ بما يفني أثر هذا الخفقان.

عاد الجدل إلى علم نشوء الكون بفعل هذه النتائج. وبدأ البعض يعتقد أن ثابتة الكون التي تبرأ منها أينشتاين، بعد أن اخترعها، قد تكون سبيل الخلاص. وصار لسان حال فردْ هويل وصحبه: لقد نصحنا لكم ولكن لا تحبون الناصحين.

* * * * *

وانتقل الآن إلى **أسلاف الإنسان**

الإنسان الحالي، أي الإنسان الحكيم الحكيم، كله من سلالة امرأة واحدة عاشت في جوار الحبشة قبل مئة ألف عام. وقبله كان إنسان أقدم انفصل سلفه عن أقرب القرود العليا إليه، وهو البعام (الشمبانزية)، قبل خمسة آلاف ألف سنة، عندما فصل الانهدام الذي هو امتداد الغور البادئ في بلادنا والمتجه جنوبًا، بين فريقين من أسلاف الإنسان القديم والبعام، عاش أولهما في غرب الانهدام في أرض من الغابات الكثيفة فيها الغذاء الكافي فكان من ذلك البعام، وعاش الفريق الثاني في شرق الانهدام في أرض قليلة الشجر والنبات، لا يستطيع أن يعيش فيها إلا من أنعم الله عليه بقدر من الذكاء، فكان سلف الإنسان القديم. وحتى العام الماضي كان أحسن المعروف من أسلاف الإنسان القديم هيكل أنثى عاشت قبل ثلاثة آلاف ألف سنة في المنطقة ذاتها التي هي مهد الإنسان بأنواعه المتعاقبة. وهذه الأنثى من نوع سمي قرد الجنوب العفاري، وسميت هي لوسي. أما في العام الماضي فقد اكتشفت بقايا أفراد من

مخلوق أقدم عاش قبل أربعة آلاف ألف سنة. ووجدت هذه البقايا في قرية في الحبشة. وهذا المخلوق أكثر أسلافنا المعروفين حتى الآن شبهًا بالقرود، وقد سُمّي نوعه قرد الجنوب الجذري. وكانت سكناه في أرض فيها أشجار متناثرة. ووجدت من هيكله سبع عشرة قطعة من الأسنان والعظام منها عظام ذراع وفكّ طفل فيه سن حليبي. وقد نهشت الضواري هذا الآثار، ولكنها تدل على أن أصحابها من نوع أكثر شبهًا بالبعام من لوسي لأن أضراسه صغيرة وأنيابه كبيرة، إلا أن شكل أنيابه واتجاه عموده الفقري يشهدان بأنه من أسلاف الإنسان لا البعام. ولا يُعلم بعدُ: هل كان هذا المخلوق يمشي منتصب القامة؟ فإذا وجدت عظام أخرى فيها حوض أو عظم ساق فإنها قد تجيب عن هذا السؤال. ولذلك يهرع علماء أسلاف الإنسان إلى هذه المنطقة في الحبشة وجوارها التي طالما زودتهم بما ينشدون عن آبائهم الأقدمين، ولسان حالهم:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

* * * * *

وانتقل الآن إلى **تنظيم نمو الكائن الحي**

من عجائب الخلق أن قضت مشيئة العلي القدير بأن يكون الإنسان كما ورد في محكم التنزيل: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ – ١٤]. وانتقال الخلية الأولى الملقحة إلى خلايا تنقسم، ثم

تنتقل، ثم تتنوع، ليتألف منها جسم الكائن الحي مسألة من أبدع المسائل وأصعبها. فمن المعلوم أن في كل خلية، كما سبق وقلنا، الرسالة الموروثة بكاملها. فكيف تدري الخلايا أي مصير ينبغي أن تصير إليه، وأي طراز تؤلف. هذه مسألة يتطلب حلّها المشاهدة والحساب. وقد دُرِسَ في هذا العام جزء من الرسالة الموروثة يعين على بلوغ هذا الهدف. ويسمى هذا الجزء القُنْفُذ ورفاقه. وحدد العاملون عمله في كائنات عديدة منها الذباب والفأر.

ومنذ زمن يعرف العلماء أن بعض الأجزاء الأساسية في نسيج الجنين تقود طراز استقرار الخلايا في مواضعها الصحيحة حول هذه الأجزاء. ولم يكن يعرف كيف يجري هذا الأمر. ثم بينت تجارب، تمت في العام الماضي، أن المادة الكيميائية التي تقود هذا النمو هي المادة التي كتبت في جزء الرسالة الموروثة المسمى بالقنفذ. (هذا الاسم مصدره أن الأجنة التي يزاح فيها هذا الجزء من الرسالة الموروثة تمسخ وتُغَطّى بشعر خشن كالشوك). وتبين أن مادة القنفذ الكيميائية هي التي تنقل الإشارة من خلية إلى أخرى، وتدلها على ما ينبغي أن تصنع، وأين ينبغي أن تتوضع. وتفعل المادة ذلك بأن تحث في الرسالة الموروثة أجزاءً محددة على العمل. وقد وجد الباحثون آثار القنفذ في نمو أعصاب السمك والدجاج والجرز والفأر وهو يعمل في جناحي فَرْخ الدجاج كما يعمل في عينَي الذبابة.

وباكتشافه التقت أقسام من علم الحياة تعنى بالخلية والنمو المواد الكيميائية الحيوية، وتأكدت مرة أخرى وحدة الخليقة واتفاق بنيانها، وتجلت من جديد عظمة الخالق سبحانه.

* * * * *

وانتقل الآن إلى **المواد الكهربائية الجديدة**

صنع مادة جديدة قد يؤدي إلى تغيير شامل في الحياة والعلم. فأنصاف النواقل نقلت الإذاعة المسموعة والمرئية من حال إلى حال نقلًا بَدَّلَ الدُّنيا.

فقبل أنصاف النواقل كان جهاز استقبال الإذاعة كبيرًا ثقيلًا غاليًا نَهِمًا بالكهرباء، لا يطيق مؤونته إلا القليل، ولا يُحْمل ولا يُنْقل إلا بمشقة. ثم جاءت أنصاف النواقل فأصبح مستقبِل الإذاعة صغيرًا خفيفًا رخيصًا مقتصدًا بالكهرباء. وأصبح يحمله الراعي في حقله، والعامل في مصنعه، والطالب في معهده. ولا يخفى على أحد ما أحدثه ذلك من تغيير في كل مكان في العالم وفي وطننا العربي قبل سواه.

وفي العام الماضي صُنعت مادة لَدْنَة قادرة على نقل الكهرباء، وأخرى نصف ناقلة، وثالثة مولدة للنور. وهذه المواد خفيفة مرنة رخيصة، ويمكن حَنْيُها، وفتلها، ولفها، وتبقى مع ذلك تنقل الكهرباء، أو تنقلها نصف نقل. وهي تُصنع في شكل أغشية رقيقة أو تطبع طباعة، وهذا هو سر قلة نفقتها. ويسعى العلماء إلى أن يبنوا منها ذا مسريين أحسن (وذو المسريين هو المصباح الذي يصدر الضوء الأحمر ويُرى في كل الأجهزة الكهربائية).

وقد صنعوا في العام الماضي مادة لَدْنَة لنورها ألوان مختلفة، ولكن وهجها يخبو مع الزمن، فلا بد من علاج هذا العيب فيها قبل أن يشيع استعمالها. وقد صنعوا أيضًا مادة لَدْنَة تستجيب للنور استجابة غير متناسبة مع سطوعه. وتفيد هذه المواد في تصوير صور مجسمة يراها المرء كأصلها في المكان ذي الأبعاد الثلاثة. ويسعون أيضًا إلى جعلها تخزن الإعلام بالنور، وتعالج الصور. وإذا وَفَّتْ هذه المواد الجديدة بما تعد به، أصل عصر ذهبي آخر للمواد اللدنة.

وانتقل الآن إلى **لبنة المادة الأخيرة**

قصة بنيان المادة قصة قديمة بدأت منذ ثلاثة آلاف عام، وتسارعت أحداثها منذ مئتي عام. وخير ما تُشَبه به المادة البصلة التي كلما قُشِرَتْ منها طبقة وُجِدَتْ تحتها طبقة أخرى، أو الدُّمْية الروسية التي إذا نُزِع رأسها وُجِدَتْ داخلها دمية أخرى أصغر، فإذا نُزِع رأس هذه، وُجِدَتْ فيها دمية ثالثة، وهكذا دَوالَيْك، حتى تكون خاتمة المطاف دمية صغيرة كل الصغر لا تسع شيئًا.

والمادة كذلك، كلما كشف منها طبقة ظهرت تحتها طبقة أخرى. بدأت القصة بالذرة التي سماها الإغريق بالشيء الذي لا ينقسم، والعرب بالجوهر الفرد والجزء الذي لا ينقسم. ثم تبين أن الذرة مركبة، وأن فيها نواة وكهارب. ثم ظهر أن النواة مركبة أيضًا فيها نُوَييات. والآن نعلم أن النُوَيَّة مركبة أيضًا من أجسام صغيرة جدًّا كالنقط سموا الواحد منها كواركًا.

وهناك ستة أنواع من هذه اللبنة الدنيا للمادة، هي: الأعلى والأسفل، والغريب والساحر، والذروة والقعر. وقد كشفت كل هذه الأنواع إلا الذروة فقد أعيا صيده الباحثين. وأخيرًا ظفروا به في العام الماضي، وقاسوا كتلته فوجدوا أنها تساوي كتلة ذرة الذهب أو تكاد. ولم يكونوا واثقين ثقة كاملة بصحة ما وجدوه، ولكن قياسًا آخر تم في هذا العام أكد صحة ما وصلوا إليه. وباكتشاف جسيم الذروة هذا يكاد يكتمل النموذج الشائع الذي يفسر بنيان المادة، والذي أقام أركانه ثلاثة، أحدهم العالم الباكستاني محمد عبد السلام، فَمُنِحوا جائزة نوبل. ولم يبقَ لإكمال النموذج الشائع إلا اكتشاف جسيم واحد مسمى باسم من اقترح وجوده وهو هيغز. ويعتقد أن هذا الجسيم هو الذي

يعطي كل جسيم آخر كتلته. وتفسير ذلك أمر عويص بلغ من صعوبته أن وزير العلم البريطاني قبل بضع سنوات، وولدغريف (وهو الآن وزير الزراعة) قال إنه يُعطي جائزة كبيرة لمن يستطيع أن يفسر له ما هو جسيم هيغز في صفحة واحدة. ونالَ الجائزة عالم كتب ما خلاصته أن جسيم هيغز كالسيدة ثاتشر (وكانت رئيسة الوزراء عندئذ)، فكما أنها متى دخلت قاعة استقبال، تحلق الناس حولها، وتحركوا معها متى تحركت، ووقفوا متى وقفت، فألفوا بذلك كتلة متراصة هي سببها وأصلها، فكذلك جسيم هيغز يجمع حوله المادة فيعطيها كتلة. ولا أدري إذا كان الوزير وولدغريف قد أعطى الجائزة لأنه فهم ما كتبه العالم أو لأنه يئس من الفهم.

* * * * *

وانتقل الآن إلى **دواء الكآبة الجديد**

هناك مادة توجد في الدماغ والأمعاء والدم تعمل عمل الناقل العصبي، أي تحمل الرسالة من خلية في الدماغ إلى خلية عصبية أخرى مجاورة. وكذلك تستطيع هذه المادة تضييق الأوعية الموجودة في الجسم وتقليص العضلات. وتسمى هذه المادة سيروتونين. ولها مستقبلات على جدران الخلايا تمتصها حين تكون قد أُفْرِزَت فَتُدْخِلها إلى الخلية، وتُمكنها من أن تفعل فعلها. ولهذه المادة فعل كبير في مزاج الإنسان. ويعتقد أن ما يصيب الناس من كآبة عند نقصان تعرضهم للنور عما ينبغي مرتبط بأن نقصان النور هذا يعرقل إفراز هذه المادة أو استقبالها. وتعلمون أن مزاج الإنسان يسوء كثيرًا بنقصان النور، فيؤدي ذلك

أحيانًا إلى الكآبة وقد تصل به، إذا ساء الأمر، إلى الانتحار. وهذا أمر مشاهد في البلاد التي يكون نهارها قصيرًا جدًّا في الشتاء كالبلاد السكندیناقية. فنسبة الانتحار في هذه البلاد أعلى نسبة في العالم مع أنها من أكثر بلاد الله ثروة. ويزداد الانتحار في الشتاء. وكذلك تدل المشاهدة على أن نسبة الكآبة في الولايات المتحدة الأمريكية تكون أعلى كلما كانت المنطقة فيها أقرب إلى الشمال، والفصل أقرب إلى الشتاء. ولذلك كثيرًا ما يعالج من يصابون بهذا النوع من الكآبة بتعريضهم لضوء باهر مُدَدًا طويلة في كل يوم. ومن مظاهر هذا الأثر لمادة السيروتونين أن الذي يختل فيه توازنها يفرط في الطعام ويصاب بالسمنة. وفي الشهر الماضي نُشرت أبحاث عن فئران حُذف فيها نوع من أنواع مستقبلات السيروتونين فنشأت هذه الفئران وبها نهم شديد إلى الطعام، وسمنة مفرطة، وهذا يدلّ على أن مُسْتَقْبِلَ السيروتونين المحذوف له أثر بالغ في ضبط الشهية. وكذلك أصبحت هذه الفئران معرضة للموت المفاجئ بالتقلص، وهذا يدل أيضًا على أن المُسْتَقْبِلْ المحذوف يُقَلل من خطر الإفراط في التهييج العصبي.

وفي العام الماضي عَرَّفَ دواء اسمه پروزاك ملايين الأمريكين بما لهذا الناقل العصبي المسمى سيروتونين من سلطان. وثار جدل بشأنه وبشأن استعمال الأدوية في طب النفس ولتحسين المزاج. واستمر العلماء يستقصون الروابط بين كيمياء الدماغ والسلوك بدراسة أنواع من الحيوان تعالج بمواد كيميائية منتقاة، أو يغير شيء من رسالتها الموروثة، ثم يُنْظر فيما ينتج من ذلك.

پروزاك هو أحد الأدوية الخمسة المعروفة التي تعرقل سعي الخلية التي أفرزت السيروتونين إلى استرجاعه، وذلك حتى يبقى السيروتونين موفورًا

تستطيع أن تستمر في امتصاصه الخلية التي أُفرز من أجلها. وهذا على ما يبدو شيء حسن تنشرح له النفس. وفضل الپروزاك على ما سبقه من أدوية علاج الكآبة التي تعمل عمله هو أن آثاره الجانبية الضارة أقل. وقد أولع به من يتناولونه، وزعموا أنه يزيح غمامة الكآبة، ويعيد الثقة بالنفس، وأنه مفتاح السعادة المأمون. وهذا يذكرنا بما كان يقال عن مشتقات الأفيون وشجرة الكوكا من مزاعم في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن. فقد كان كل مخدر من هذه المواد يباع للناس، وتُطْرى فوائده (أغنية «شم الكوكايين» يذكرها من ولدوا قبل زمن كافٍ). وبدأت الكوكاكولا شرابًا يحوي الكوكا ويفخر بذلك، ثم تنكرت له، وأنكرت ماضيها عندما تبين أن كل هذا رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه. وقد ينتهي الپروزاك هذه النهاية المخزية، ولكنه اليوم الدواء الأول المستعمل في طب النفس في أمريكا، وتكتب الكتب في تقريظه. وسيطل علينا قريبًا لأن ما تفعله أمريكا اليوم تفعله الأرض غدًا، خيرًا كان أو شرًا. وقد عم أوربا منذ الآن، ونشرت مجلة بريطانية، هي السپكتيتر، رسمًا ساخرًا منذ أيام، بعد الهزيمة المخزية التي مني بها حزب المحافظين في الانتخابات المحلية، تمثل جون ميجر يفتح باب مقره الرسمي ليتسلم صناديق من الپروزاك.

ويرى البعض في قبول الجمهور للپروزاك انعطافًا في طب النفس يرسخ الانتقال من العلاج بالكلام (كالتحليل النفسي) إلى العلاج بالدواء. ويقول أنصار الپروزاك إن عصرًا جديدًا قد أطل، ستعالج فيه كل الأمراض النفسية بضبط كيمياء الدماغ.

ويخالفهم آخرون فيحذرون من استعمال المواد القادرة على النفوذ إلى الدماغ والتأثير في عمله تأثيرًا قد يكون خطرًا.

وفي العام الماضي اكتشف العلماء أيضًا فعلًا آخر للسيروتونين؛ فقد استولدوا فئرانًا يعوزها مُسْتَقْبِل للسيروتونين. (هناك أربعة عشر نوعًا، كل نوع مُسْتَقْبِل للسيروتونين غير أشباهه). فوجدوا أن هذه الفئران شريرة أكثر من أخواتها التي لا يعوزها المُسْتَقْبِل، وأنها تهاجم الفئران الأخرى بشراسة.

وصلنا الآن إلى نهاية جولتنا العلمية التي بدأناها بالإصلاح وختمناها بالسعادة. وسعادة المستمعين تكمن دائمًا في إنهاء الخطيب كلامه، فلا أحرمكم ذلك، ولكن لا بد لي من أن أشكر لكم أن شرفتموني بالحضور، وللمجمع أن تفضل عليّ بدعوتي إلى الكلام، ولمكتبة الأسد أن أحسنت مثوانا جميعًا.

وإذا شئتم أن تسألوني أجبت، إن شاء الله، ما وسعني ذلك.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * * * *

اللغة العربية
ومصطلحات العلم الحديث[1]

المهندس الدكتور عبد الرزاق قدورة

اشكر لمجلة (المعرفة) دعوتها العاملين في مضمار التعليم الجامعي إلى المساهمة في المناقشة الهامة التي فتح بابها السيد الأستاذ الدكتور بشير العظمة بمقالة «اللغة العربية، وهل تتسع لمصطلحات العلم الحديث»، وساهم فيها حتى الآن السيد الأستاذ الدكتور أحمد شوكة الشطي، والسيد الدكتور سلمان قطاية، والسيد الدكتور صلاح أحمد. ويسرني أن أتقدم ببعض الأفكار التي أوحت لي بها هذه المناقشة.

إني أعتقد أن الدكتور بشير العظمة قد كتب في هذا الموضوع مقالًا شاملًا جامعًا، وأود أن أعبر عن مشاركتي إياه الرأي في الفكرة الأساسية التي عرضها. وإذا كانت لي ملاحظات تخص بعض الأفكار الثانوية أو الصياغة في بعض الأجزاء، فإني لا أرى أن من المثمر الخوض فيها الآن. ويتراءى لي أن فكرة الكاتب الأساسية، وهي أن استعمال اللغة الوطنية في التدريس ضرورة قومية، وواجب ديمقراطي شعبي، وأمر تقضي به مصلحة نشر العلم والمعرفة بين جماهير الأمة، هي فكرة لا يختلف فيها اثنان، وبخاصة إذا كانت هذه اللغة هي

(١) مجلة المعرفة، العدد ٥٥، أيلول ١٩٦٦.

اللغة العربية الكريمة لغة القرآن والإسلام، لغة الثقافة والحضارة العربية العظيمة. ولقد أحسن السيد الدكتور شوكت الشطي في الرد على القائلين بعجز اللغة العربية عن التعبير عن العلم الحديث، ولم يترك في ذلك مجالًا لمستزيد.

إن قبولنا بهذه الفكرة الأساسية، وإيماننا العميق بصحتها، وبأنها أحد السبل الأساسية لإقامة صرح نهضة علمية عربية جديدة، لا يعني أبدًا إنهاء المشكلة وحلها، بل هو بداية الطريق وأول الدرب. وتثار حول استعمال اللغة العربية اعتراضات عديدة أشار إليها السادة الكُتاب، ولعل من أهمها ثلاث نقاط:

١-إن استعمالنا اللغة العربية في التدريس، واقتصارنا عليها، يجعل طلابنا عازفين عن إتقان لغة أجنبية، فيضع ذلك بينهم وبين العلم حاجزًا كبيرًا وسدًّا منيعًا، ويجعلهم بمعزل عنه، وخاصة بعد تخرجهم من الجامعة، ويحول بينهم وبين المساهمة في نقل العلوم إلى العربية ونشرها وتبسيطها بعد انتهاء دراستهم.

٢-إن فوضى المصطلحات العلمية باللغة العربية في أكثر الأحيان تحول بين المختص العربي في علم ما وبين فهم ما كتبه باللغة العربية مختص آخر في العلم ذاته.

٣-إن انتقاء المصطلحات، واستخراجها من خزائن اللغة العربية الغنية، واشتقاقها ونحتها أحيانًا، أمر يتطلب مجهودًا عظيمًا كان أولى به أن ينفق في نقل العلم ذاته إلى المتعلمين، وتيسير أسبابه لهم.

وأود أن أناقش كل واحد من هذه النقاط الثلاث، وأن أختم كلمتي بوصف تجربة لنا متواضعة في كلية الهندسة الناشئة بجامعة دمشق.

١- الاقتصار على اللغة العربية والعزوف عن اللغات الأجنبية

يلاحظ العامل في نطاق التعليم في جامعة دمشق ضعف الطلاب في اللغات الأجنبية، واستخفافهم بها. وفي هذا، في اعتقادي، ضرر عظيم لم تنصرف الجامعة حتى الآن إلى معالجته معالجة ناجحة. ولقد أصاب الدكتور بشير العظمة حين ذَكَّر بأحد الواجبات الأساسية للجامعة وهو نشر العلم بين الأوساط الشعبية الواسعة. ولكن كيف يتأتى للجامعة ذلك إذا هي لم تهيئ في كلياتها الأفراد العلميين، القادرين بأعدادهم الكبيرة، على أن يترجموا العلم ويبسطوه ويشرحوه للجماهير؟ وهل يستطيع أساتذة الجامعة والعاملون فيها وحدهم، على قلة عددهم وإرهاقهم بمختلف المهام، أن يسدوا هذه الثغرة، وأن يلبوا هذا المطلب المشروع؟

إن استعمالنا اللغة العربية في التعليم الجامعي مرتبط في اعتقادي ارتباطًا عضويًا بمعرفة الطلاب للغة أجنبية أو اثنتين. ولا يكفي أن نقرر هذا الشيء وأن تؤمن به أفواهنا، وإنما علينا أن نجعل من تدريس اللغة الأجنبية للطلاب العلميين في الجامعة أمرًا أساسيًّا لا تقل أهميته عن دراستهم لعلوم اختصاصهم. ولقد تقهقرت معرفة الطلاب باللغة الأجنبية في جامعة دمشق تقهقرًا مستمرًّا منذ سنوات. ولا خير في أن نقول اليوم إن هذه هي مسؤولية التعليم الثانوي والإعدادي، وإن على المسؤولين عنه أن يجدوا حل المشكلة ودواء الداء. ولعل هذا يكون صحيحًا في المستقبل البعيد، أما في الوقت الحاضر فلا مقر من أن تبادر الجامعة إلى العمل المثمر، وأن نجعل تدريس اللغة الأجنبية في كلياتها العلمية أمرًا أساسيًّا تصمم عليه وتخطط له، وتبحث في سبيله عن الطرق الناجعة والأساليب المفيدة. وليست هذه الطرق ولا تلك

الأساليب قريبة المنال واضحة المعالم، ولكنها ليست مستحيلة التحقيق أيضًا إذا ما توفر التصميم والعزم الصادق، ورفضنا بقاء الحال الراهنة التي تجعل من تدريس اللغة الأجنبية في أكثر الكليات العلمية أمرًا ثانويًّا مهملًا يستخف به الطلاب وتزدريه الجامعة.

ولعل من الخير ألا ننسى أن الدول المتقدمة في العلم تدرس اللغات الأجنبية لطلابها في جامعاتهم، لتحثهم على ذلك، وتعد للمحسن فيه الثواب، وللمتأخر عنه الجزاء والعقاب. وهذا هو شأن البلاد الأنكلو سكسونية مثلًا التي تدرس الفرنسية أو الألمانية أو الروسية أو الأسبانية لطلابها، وكثيرًا ما تحملهم على تعلم لغتين لا لغة واحدة فقط. فإذا كان هذا هو رأي تلك الأمم، والعلم مكتوب بلغاتها تتفجر مكتشفاته ومخترعاته بين أيديها، فكيف بنا نحن العرب وواجبنا الأول اليوم أن نكرر ما فعله آباؤنا في بدء نهضتهم العلمية الغابرة الزاهرة، فنعب من العلم الأجنبي عبًّا، وننقله لشبابنا المتفتح وجيلنا الصاعد في لغة أمه وأبيه، حتى يتمثله ويهواه، فيساهم فيه عندئذ بالقسط الأكبر والنصيب الأوفر.

وأنا اقترح أن تقيم السلطة الجامعية المسؤولة لجنة جامعية دائمة تمثل فيها الكليات العلمية، وتخطط لموضوع اللغة الأجنبية تعليمًا جديًّا منتجًا منظمًا، وتثير في الجامعة نقاشًا مثمرًا حول هذا الموضوع يصل بالهيئات الجامعية المسؤولة إلى اعتماد الحلول المقترحة. وأرى أن يكون عمل أعضاء هذه اللجنة شيئًا من صميم واجباتهم الجامعية، يثابون عنه ويؤجرون، ويحاسبون على التقصير فيه أو التهاون ويسألون، لا أن يكون تبرعًا إضافيًا هامشيًا يجتمعون

من أجله في البدء متحمسين له قانعين به، ثم تفتر هممهم، وتشغلهم أعمالهم الأساسية الأخرى، فينصرفون عنه يائسين ويتركونه نادمين.

٢- اختلاف المصطلحات العلمية وتضاربها

لقد قيل في فوضى المصطلحات العلمية الكثير. ولعمري إن هذا لخطر داهم يهدد التعريب في صميمه، ويعطي أعداءه الصريحين والمقنَّعين أكبر حججهم وأمضاها سلاحًا. وإني لأذكر والأسى يحز في نفسي تجربة عانيتها في أحد الاجتماعات العلمية العربية. فقد تحدث متحدث في موضوع استعمال اللغة العربية لتدريس العلوم، فتحمس له البعض، وأنكر قوله البعض الآخر، فأدليت بدلوي في الدلاء، وانتصرت للغة العربية، ووفقت في صف المدافعين عنها، فتقدم مني أحد منظمي الاجتماع، وكان لم ينطق بكلمة طوال المناقشة، ولم ينحز إلى هؤلاء ولا إلى أولئك، وأعطاني كتابًا عربيًا مترجمًا عن أصل أجنبي، في موضوع اختصاصي، وفتح لي صفحة فيه من دون تعيين، وطلب مني أن أقرأ فقرأت، وسألني إن كنت فهمت كل ما قرأت، فقلت له صادقًا إني لم أفهم كل شيء تمامًا، وإن كنت استطيع أن أضمن ما لم أفهم لأني لصيق بالموضوع مطلع عليه، فأعطاني الأصل الأجنبي، وبحثنا عما يقابل فيه الصفحة التي قرأتها، وطلب مني أن أقرأ، ثم سألني إن كنت فهمت ما قرأت، فأجبت بنعم، فقال لي: «لقد قلت وقالوا الشيء الكثير، وأطنبت وأطنبوا في مدح اللغة العربية، وتعداد شمائلها، وذكر محاسنها. ولكن هذا هو المحك الذي لا التباس فيه. قرأت النص العربي المترجم فلم تفهمه فهمًا كاملًا، مع أنك ممن يعمل في هذا العلم، وقرأت الأصل الأجنبي فما تعذر عليك فهمه ولا التبس عليك معناه، فما بالك بالطالب المتعلم؟».

ولقد أحسن الدكتور بشير العظمة حين قال: إن فوضى المصطلحات العلمية قد تودي، لا سمح الله، بوحدة لغتنا العربية في المجال العلمي، وهي جزء من وحدتها الكاملة التي حفظت لنا عروبتنا وأبقت على تطلعنا إلى الوحدة المرتقبة وإيماننا بأنها آتية في يوم قريب بإذن الله.

وأود أن أثنِّي على ما قاله السادة الزملاء وأن أضم صوتي إلى أصواتهم مقترحًا أن تعمل الدول العربية على إقامة مركز رئيسي للتعريب له فروع في كل بلد عربي، ليعمل الجميع عملًا دؤوبًا على توحيد المصطلحات العلمية والتوفيق بينها. ولنا في مكتب التعريب بالرباط أسوة حسنة ومثال يحتذى. وأعتقد أن الدول العربية إذا اتفقت على ذلك، وأنفقت عليه إنفاقًا سخيًّا، فإنها تكون قد أحسنت صنعًا، وبَنت للمستقبل بنيانًا عظيمًا متينًا، ولعل بلادنا سورية التي شغفت بتدريس العلوم باللغة العربية، وضربت فيه بسهم وافر، تحمل هذا الاقتراح إلى البلاد العربية الأخرى فيكون لسورية، إذا صادف اقتراحها قبولًا، شرف السبق إلى أمر جليل ومأثرة عظيمة.

٣- الجهد في انتقاء المصطلحات وفي نحتها واشتقاقها أحيانًا

أشار السادة الكتَّاب إلى الجهد العظيم الذي ينفق في انتقاء المصطلحات، وإلى التوفيق الذي يصاحبه حينًا، والإخفاق الذي يهدده أحيانًا أخرى، وذكر الدكتور صلاح أحمد إمكان الاستعارة من اللغات الأجنبية، وأنا أرى في هذا أمرًا محمودًا سارت عليه العربية في الماضي فجنت منه ثمرًا طيبًا، وتسير عليه لغات العالم المختلفة اليوم، فتستعير وتعير، لا تأنف من ذلك ولا ترى فيه سبة ولا عارًا.

وليس بخافٍ على أحدٍ كم تستعير الفرنسية من الإنكليزية كلمات علمية وفنية، ورياضية وتجارية، وغيرها، إلى حدِّ أن أحد الغيورين على نقاء اللغة الفرنسية وصفائها، وخلوها من الدخيل الأجنبي، وهو الأستاذ اتيمبل كتب كتابًا سماه الفرنكليزية *Franglais*، نعى فيه على قومه إفراطهم في هذا السبيل. وإذا قال قائل إن الفرنسية من الإنكليزية قريبة، وإنه لا عجب إذن في أن تستعير إحداهما من الأخرى، وإن الكلمة الإنكليزية الآتية إلى الفرنسية، أو الفرنسية الآتية إلى الإنكليزية، لا ترى في ذلك ضيرًا، ولا تلقى في بيتها الجديد إلا أشقاء وأخوات، قلنا إن مثل ذلك يقع أيضًا بين الروسية والإنكليزية مثلًا مع أن الشقة بينهما أبعد، والصلة أضعف، وأضفنا أن الكلمات العلمية والهندسية، وخاصة منها الحديثة، تكاد تكون واحدة في لغات الشعوب الصناعية المتقدمة، تلفظها كل أمة اللفظ الذي يلائم عبقرية لغتها، من دون أن تنقطع الصلة نهائيًا بين الكلمة، وبين أصلها الأول (وهو في غالب الأحيان لاتيني أو يوناني).

إذا أضفنا إلى كل ما سبق هذا العدد الهائل من الكلمات العلمية والهندسية الجديدة الذي يستنبته العلم وتستنبطه الهندسة في كل يوم، رأينا أن من العبث أن نعرِّب كل قطرة من هذا البحر الزاخر بكلمة عربية فصيحة راجعة إلى سلالة سليمة، ففي ذلك جهد ننوء به؛ ولذلك أرى مع الدكتور عظمة والدكتور أحمد أن ننقل أكثر هذه الكلمات، وخاصة منها الكلمات الحديثة، بعد أن نصقلها صقلًا مناسبًا يجعل العربية لا تنفر منها بل تتبناها وتحتضنها.

٤- تجربة كلية الهندسة بجامعة دمشق

كلية الهندسة بجامعة دمشق كلية ناشئة أسست منذ خمس سنوات،

وتعهدتها السلطات الجامعية المسؤولة بالرعاية والعناية، فلم تبخل عليها بالمال ولم تضن عليها بالتوجيه. ثم حصلت لها على منحة من الصندوق الخاص للأمم المتحدة لتزويدها بالأساتذة والخبراء، وتجهيز مخابرها بالآلات والأدوات، وإمدادها بالمنح والإيفادات. وتعمل الكلية متعاونة مع اليونسكو على إعداد طلابها ليساهموا في مشاريع البلد الهندسية. ولسنا هنا في مجال الحديث عن الكلية، وإنما أقول إن المفاوضات التي دارت مع الأمم المتحدة أثارت موضوع لغة التعليم، فنصح بعض الخبراء باعتماد اللغة الإنكليزية، وعددوا الحجج والبراهين لدعم فكرتهم هذه، إلا أن كلية الهندسة أبت ذلك إباء شديدًا، ورفضته رفضًا باتًّا، ولم تقبل للغة العربية في التدريس شريكًا، ولا عنها في التعليم بديلًا. ولكنها أدركت أن الحفاظ على تدريس الهندسة باللغة العربية، وإدراك الفائدة الموجودة في ذلك لا يتم إلا بتزويد طلاب الهندسة بزاد متين كافٍ من اللغة الأجنبية، فعكفت على تحقيق ذلك، ونظمت لطلاب سنتها الدراسية الأولى (وهي السنة المسماة السنة الإعدادية) برنامجًا لتدريس اللغة الإنكليزية العلمية والهندسية، يقرأ فيه الطلاب خلال عام كامل، وبمعدل اثنتي عشرة ساعة أسبوعية، عددًا كبيرًا من النصوص العلمية والهندسية الحديثة الهامة، فيطلعون على المفردات التي تستعملها علومهم، ويسمعون بقضايا التطورات الحديثة في اختصاصاتهم المقبلة، مشروحة في مقالات كتبها بعض كبار المختصين العالميين في هذه المواضيع، وأعدوها لجمهرة القراء المثقفين خصيصى، فجعلوها في لغة جذابة وأسلوب واضح بعيد عن الصعوبة والتعقيد. وانتقت الكلية لتنفيذ برنامجها هذا عددًا من أفضل مدرسي التعليم

الثانوي، وتكرمت وزارة التربية فندبتهم للكلية، فانصرفوا إلى العمل وأتقنوه. وقسمت الكلية طلاب السنة الإعدادية فيها إلى زمر صغيرة (في كل منها عشرون طالبًا أو نيف)، وجعلتها زمرًا متجانسة، لطلابها معرفة سابقة متقاربة باللغة حتى لا يمل القوي الإفراط في الشرح للضعيف، ولا ييأس الضعيف من ارتفاع المستوى وجعله مناسبًا للقوي فقط.

والكلية ماضية في هذا السبيل منذ السنة التالية لتأسيسها، وهي تعمل جاهدة على تحسين الطريقة عامًا بعد عام، متلمسة الأخطاء فيها لتتجنبها، وباحثة عن النقاط الحسنة لتدعمها وتقويها.

وقد اقترحت حلولًا عملية لزيادة التجانس بين الطلاب المقبولين في الكلية من حيث معرفتهم السابقة باللغة الإنكليزية، وتأمل أن تلبي السلطات الجامعية المسؤولة حاجتها ورغبتها. وكذلك تأمل أن تتوسع في العام المقبل إن شاء الله في استخدام الطرق الصوتية الحديثة في تعليم اللغة الإنكليزية.

وتصل الغالبية العظمى من طلاب الكلية إلى معرفة مرضية باللغة الإنكليزية بعد انتهاء سنتهم الإعدادية، فيرجعون منذ السنة التالية إلى أمهات الكتب العلمية والهندسية المكتوبة باللغة الإنكليزية، ويدرسون فيها دراسة مجدية مثمرة، ويستمعون إلى محاضرات الأساتذة الأجانب خبراء اليونسكو، فيفهمون عنهم ويتعلمون منهم. ولسنا ندعي أن التجربة الناجحة كل النجاح، ولكنها خطوة أولى في طريق طويلة شاقة، ولعلها تتسع حتى تشمل الكليات العلمية في الجامعة، فتتحسن بفضل ما تلاقيه من تجارب مختلفة وأفكار جديدة ومساهمات متعددة.

٥- خلاصة وخاتمة

لعل خير ما ألخص به كلمتي هذه هو ذكر التوصية التي توصلت إليها الحلقة الدراسية الإقليمية للتعليم الفني التي نظمتها اليونسكو في طرابلس بليبيا في شهر نيسان من العام الحالي، وحضرها ممثلون من البلاد العربية جميعًا وبعض بلاد الشرق الأوسط غير العربية، وقد جاء في التوصية:

«إن تدريس المواضيع الفنية في جميع المراحل بلغة البلاد الوطنية أمر هام لإيجاد الجو المناسب للأبحاث العلمية والنمو الفني والتكنولوجي. وينبغي السعي إلى تهيئة الظروف اللازمة لهذا التدريس. إلا أن ذلك لا يجب أن ينقص أبدًا من أهمية تدريس اللغات الأجنبية للمهندسين، فهو أمر متعارف في العالم بأسره».

ولا يسعني في الختام إلا أن أكرر شكري لمجلة «المعرفة» وللقائمين عليها، لفتحهم باب المناقشة في هذا الموضوع الهام، وإلا أن أعبر عن تقديري واحترامي للسادة الزملاء الأساتذة الكرام الذين شقوا الطريق وشجعوني على أن أسهم بهذا الجهد المتواضع. وإني لأرجو أن يمتد الاهتمام به إلى أوسع الأوساط الجامعية، وأن تتعمق المناقشة وتغنى، حتى يتولد من احتكاك الأفكار وتفاعلها الحل السليم الراشد الذي يضع اللغة العربية في مكانها الصحيح.

* * * * *

الفصل الرابع

وقائع حفل تأبين
الدكتور عبد الرزاق قدورة
رحمه الله تعالى

برعاية السيدة الدكتورة نجاح العطار، نائب رئيس الجمهورية للشؤون الثقافية، وبالتعاون بين مجمع اللغة العربية وجامعة دمشق، أقيم في الساعة السادسة من مساء الأربعاء ٢٦/ شوال/ ١٤٢٨هـ- ٧/ ١١/ ٢٠٠٧م حفلٌ تأبيني كبير للأستاذ الدكتور محمد عبد الرزاق قدورة رحمه الله، على مدرج قاعة المحاضرات في مكتبة الأسد.

حضر حفل التأبين السيدة الدكتورة نجاح العطار، ونخبة طيبة من الوزراء والعلماء والأدباء والمفكرين وشخصيات الدولة وأهل الفقيد وأصدقائه وطلابه.

وقد اختار الله فقيدنا الأستاذ الدكتور محمد عبد الرزاق قدورة إلى جواره يوم الاثنين ١٦ رجب ١٤٢٨هـ، الموافق ٣٠ تموز ٢٠٠٧م، بعد رحلة طويلة حافلة بالعطاء.

بُدئ الحفل بتلاوة آيات مباركة من القرآن الكريم. وقدّم للحفل الدكتور محمود الربداوي.

- وألقى كلمة مجمع اللغة العربية الدكتور محمد مروان المحاسني نائب رئيس المجمع.

- وألقى كلمة جامعة دمشق الدكتور وائل معلا رئيس الجامعة.

- وألقى كلمة أصدقاء الفقيد الدكتور عبد الله واثق شهيد أمين مجمع اللغة العربية.

- وألقى كلمة أهل الفقيد الأستاذ عبد القادر قدورة شقيق الفقيد.

رحم الله فقيدنا الرحمةَ الواسعة، وأسكنه فسيح جنانه، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحَسُن أولئك رفيقا.

وفيما يلي نص الكلمات التي أُلقيت في الحفل.

* * * * *

كلمة الدكتور مروان المحاسني
نائب رئيس المجمع

أيها السيدات والسادة

لم يتطرق إلى مخيلتي يومًا أن أقف أمامكم مستذكرًا مآثر وصفات زميل عزيز وصديق وفيّ، تربطني به أشد أواصر المحبة والتقدير. إلا أن ما أصاب الأستاذ الدكتور شاكر الفحام رئيس المجمع من انحراف في صحته – شفاه الله – لا يتيح له فرصة الحضور قد جعله يفوّض إلي تمثيلَ مجمع اللغة العربية.

ولئن كانت الحياة قد عوّدتنا تقبُّل صروفها بكل الرضا معتمدين الإيمان بمشيئة خالقنا، وقد تيقَّنّا أن لكل امرئ، وإن طالت سلامته، أجلًا تنقطع فيه صلته بعالمنا الفاني، إن ما يضاعف وقعَ المصاب في نفوسنا هو ما أحاط بوفاة الدكتور عبد الرزاق قدورة من مفاجأة أليمة لمن يعرفون نشاطه وحيويته.

وقد عادت بي ذاكرتي إلى أيام انطوت، حين التقى مساري بمساره في خدمة العلوم في بلادنا. فحين عاد الدكتور قدورة عام ١٩٦١ من إيفاده إلى إنكلترة، للحصول على الدكتوراه في الفيزياء النووية من جامعة بريستول، انضم إلى السكرتارية الفنية في المجلس الأعلى للعلوم، التي كنتُ من مؤسسيها عام ١٩٦٠، برفقة كلٍّ من الدكتور واثق شهيد والدكتور وفائي حقي.

وسرنا معًا نُوزّع الأدوار بين اللجان المختلفة، وكان الأستاذ وجيه السمان رحمه الله، رئيسُ لجنة المقررين، ينسّق معنا برامجَ أسابيع العلم المتتالية، التي جمعت خيرة العاملين في مجالات العلوم من إقليمي الجمهورية العربية المتحدة.

وقد عرفت الدكتور قدورة أيضًا زميلًا في جامعة دمشق، يرتقي مراتب كلية العلوم، ثم انتقل إلى كلية الهندسة وأصبح عميدًا لها. وقد عَرفَتْه الجامعةُ رجلًا فذًّا في علمه وخلقه واستقامته.

وبعد عودته من إيفاد ثانٍ إلى جامعة أُكسفورد، حيث قام ببحوث هامة في مجال الفيزياء النووية، عُيِّن رئيسًا لجامعة دمشق عام ١٩٧٣.

ولقد عرفناه عندئذ رئيسًا غيرَ تقليدي، لا يحيط نفسَه بما اعتاد بعضُ أصحاب المناصب إحاطةَ أنفسهم به، فقد كان بابه مفتوحًا للجميع، يَبتُّ في الأمور المعروضة عليه بكل دقة، مؤكدًا ضرورة التجاوب مع احتياجات الجامعة دون إبطاء.

وقد وجد في كل من الدكتور إبراهيم حداد والدكتور محمد خير فارس رحمه الله وكيلين أمينين، انخرطا معه في إدارة شؤون الجامعة بكل جد وتجرّد.

وحين داهمتنا حرب تشرين عام ١٩٧٣ كنت المسؤول عن المستشفى الجامعي رئيسًا لقسم الجراحة، وكان الدكتور قدورة على رأس الترتيبات التي سمحت لنا بخدمة المدنيين ضحايا الغارة الغادرة على دمشق، ومواجهةِ ما يحتاجه المستشفى من أدوية ولوازم طبية، وكان شديد الاهتمام بإيجاد الكميات المطلوبة من الدم على اختلاف زمره، لمعالجة الحالات المستعجلة، حين يكون نقل الدم أُولى خطوات إنقاذ الجرحى.

إن ظروفًا صعبةً كهذه هي الشدائدُ التي تمتحن الرجال وتظهر ما فيهم من نبل وإخلاص وتفانٍ في خدمة الوطن.

وأستطيع القول إننا لم نكن نعرف متى يلجأ رئيس الجامعة إلى فراشه، لأنه كان دائم الوجود في الجامعة طيلة أيام تلك المحنة.

ولم يطل مقامه في دمشق بعد انتهاء عمله في الجامعة إذ سُمِّي مديرًا للشؤون العلمية في المنظمة الدولية للثقافة والتربية والعلوم *Unesco* حيث توثّقت بينه وبين مديرها العام الدكتور *Mba* عرى صداقة حقيقية، أتاحت له الفرصة لتسخير طاقاته وتوظيف ثقافته العالية في خدمة مؤسسة التفتت بفضله إلى مشكلات العالم الثالث، التي أولتها المنظمة جزءًا كبيرًا من اهتماماتها.

وكان مجمع اللغة العربية قد انتخبه عضوًا عاملًا في مطلع عام ١٩٧٤ تقديرًا لما وصل إليه من مرتبة علمية عالية، وما أسداه من خدمات لطلابه، لإيصالهم إلى الإحاطة بكل ما يظهر في علم الفيزياء من كشوفاف عالمية. إلا أن غيابه عن سورية قد جعل استقباله في المجمع يتأخر إلى عام ١٩٩٠، حين انتهت مهمته في المنظمة الدولية.

لن أستطيع الاستفاضة في تفصيل النواحي المتعددة التي برز أثر الدكتور قدورة فيها بين رئاسته للجامعة عام ١٩٧٣ ووفاته المفاجئة. فهي مهامٌّ موزعة بين مجلسِ حكام الوكالة الدولية للطاقة الذرية، واللجنةِ الاستشارية لجامعة الأمم المتحدة حيث كان نائبًا لرئيسها، ومجلسِ إدارة المركز العربي السعودي للعلم والتكنولوجيا، واللجنةِ الثقافية الاستشارية لمعهد العالم العربي في باريس، واللجنةِ الدولية لتنمية التربية، وأكاديميةِ العالم الثالث. وكلُّها مؤسسات عالمية تلتقف أمثال الدكتور قدورة، لتستفيد من نزاهتهم وخبرتهم وثقافتهم الواسعة المرتكزة إلى شغف حقيقي بالقراءة، وسعي لا ينتهي للاستزادة من المعرفة.

لن أتكلم عن مؤلفاته في المجالات العلمية وفي علوم الفيزياء خاصة، فهي تشكل مراجعَ علميةً نفيسةً، إلا أنه لا بد لي من ذكر كتاب تربوي مازال يحتل

مكانة رفيعة بين كتب التربية، هو كتاب «تعلَّمْ لتكون» الذي شارك الدكتور قدورة في تأليفه برفقة ستة من العلماء العالميين في «اللجنة الدولية لتنمية التربية» بإشراف السيد «إدغار فور» السياسي الفرنسي المعروف.

إنه تقرير كتب عام ١٩٧٢ وترجم إلى العربية عام ١٩٧٩. وهو يتناول موضوع التربية من الناحية الإنسانية، في سعي لجعل التبادل الفكري ممكنًا بين الإنسان والوسط الاجتماعي، لتأكيد ضرورة توفير الاستفادة من نعمة العلم لكل إنسان، وهو يتضمن دراساتٍ إحصائيةً عن مستويات التعليم في مختلف بلاد العالم، ويقترح الحلولَ لما يعتريها من مشكلات.

أيها السيدات والسادة إنّ رحيل عبد الرزاق قدورة قد كان فاجعةً لمجمع اللغة العربية الذي حُرم من رأيه السديد وثقافته الواسعة. إنه الرجل الذي بسط أجنحة معرفته على مجالات متعددة، وحاز ثقةَ زملائه ومحبتهم وتقديرهم. فإذا كانت ذكريات السعادة لا تُؤتي سعادة، فإن ذكرياتِ الأسى هي مزيد من الأسى وتجددٌ له.

إنّ الموتَ نواةٌ هاجعةٌ في لُبِّ كلّ إنسان يحملها في حياته إلى أن تنضُج وتتفتّح لتُعلن انتقالَه إلى عالم آخر. وعلى الرّغم من غياب ذلك الإنسان عن أنظارنا فإنه سيبقى حاضرًا في ذاكرتنا حيًّا في ضمائرنا، بما كان يمثّله من قيم رفيعة ومواقفَ أخلاقية جعلت منه مثالًا نادر المثال. وإن الأفذاذ الذين أعطوا ما أعطاه فقيدُنا طيلة حياته ينعمون بمكانة رفيعة في قلوبنا، ونرجو من المولى أن يُحلّهم مكانةً عالية في جنات النعيم.

* * * * *

كلمة الدكتور وائل معلا
رئيس جامعة دمشق

أيها الحفل الكريم

نجتمعُ اليوم لتأبين عَلَم من أعلام العلم في بلادنا، وكوكبٍ أضاء حياة جامعتنا؛ رجل حمل راية العلم قناعةً وممارسة، وأرادها خفاقة دائمًا، حرصًا على مستقبل الوطن وعزَّته. نقف اليوم بكلِّ خشوع وفخرٍ لتحية ذكرى أستاذٍ كبير وعالم جليل ترك بصمته في العقول، وخطَّ طريق الفلاح للأجيال، ثم سلّمَ الراية لمن تلاه، مع قسم الأوفياء للأوفياء.

إنه أستاذنا الكبير، الدكتور عبد الرزاق قدُّورة، الذي ستبقى جامعة دمشق تفتخر بما أرسى في وجدانها، والذي ينحني لوداعه خلف تمثل ما قرأ على يديه علمًا وأخلاقًا، وما ورث عنه سلوكًا وإيمانًا بقيمة العلم في رسم معالم مستقبل أفضل.

في مسيرة حياته الثرّة شرّف الفقيد عدّة مناصب أثبت جدارته فيها، وجسّد نهجه البناء شكلًا ومضمونًا. عرفته جامعة دمشق أستاذًا عالمًا، تدرّج فيما بعد في تولي المناصب الإدارية العلمية فيها، وأثبت إخلاصًا وتفانيًا وجدارة. عُيّن وكيلًا لكلية الهندسة، ثم عميدًا لها، ثم وكيلًا للجامعة، ثم رئيسًا لها مدة ثلاثة أعوام، من ١٩٧٣ إلى ١٩٧٦.

عَرفتُ أستاذنا الجليل عن قُرْب، حين كان أستاذًا لمقرر الفيزياء، وكنتُ طالبًا في بداية مشواري في كلية الهندسة المدنية. كان مثالًا للعالم المنصرف إلى

شؤون علمه، المتحلّي بالتواضع ورحابة الصدر، وصِدق القول، واستقامة العمل، وقناعة العيش. كان لا يتردد في الإجابة عن أي سؤالٍ يتبادر لذهن أيٍّ منّا. وكان يُقدّمُ لنا النُّصح والإرشاد في أمور علمنا كما في أمور حياتنا. كان مرجعًا يُحتكم إليه، ومثالًا يُقتدى به للمعلم الأب.

وخلال فترة ترأسه لجامعة دمشق، كان حريصًا على تنشيط عملية ترجمة العلوم إلى العربية. كما حَرِص صادقًا على أن تكون لجامعتنا العتيدة، بصمات بارزة في عملية التعريب ونشر العلوم في الوطن العربي، فكان يشجّع بعض أساتذتها على قبول الإعارة إلى الجامعات العربية الفنية.

وانتهى به الترحال، رحمه الله، إلى مَجمع الخالدين، يوم أصبح عضوًا في مجمع اللغة العربية، فخاض تجربة تكريس التعريب، إيمانًا منه بقُدرة لغة الضاد، على التعبير الدقيق عن عُمق المعاني في ميادين العلوم، في زمانٍ تتضافر فيه الجهود لإضعاف واحدةٍ من أقوى دعائم وجودنا العربي وتطلعنا إلى بناء مستقبلنا القومي.

في خطابه الذي ألقاه في حفل استقباله عضوًا في المجمع عام ١٩٩٠، تساءل الفقيد الكبير: «هل سنرى يومًا قريبًا تُترجم فيه الكتب العلمية الحديثة الصادرة بالإنكليزية، بسرعةٍ وإتقان، لتُعرض في السوق الجامعية، ليفيد منها الطلاب خيرًا كثيرًا؟». كان هذا بالنسبة له حُلمًا من أحلام اليقظة، يفِرُّ إليه خشية ما أسماه بالكابوس الأسود، وهو أن يختفي لواء العربية في التعليم الجامعي العلمي.

أستاذنا الكبير

إنني اليوم إذ أستذكر حلمك، أطمئنك إلى أننا سائرون على طريقك، وأننا نعمل بجدٍ على تعريب ما يصدر في ميادين العلوم النظرية والتطبيقية، علّنا نُسهم في الإبقاء على لواء العربية خفاقًا في التعليم الجامعي العلمي.

ولئن كان النصيب الأوفى من الحسرة والألم، يطالُ أهل الفقيد لرحيله عنهم إلى دار البقاء، إن النصيب الأوفى من الاعتزاز، قد ملكناه نحن من ميراثه.

نتوجه إلى الله العلي القدير أن يثيبه عن عطائه بجودٍ من فسيح جنانه، ونتوجه إلى ذويه بالعزاء والمحبة والاحترام.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * * * *

كلمة الدكتور عبد الله واثق شهيد
أمين مجمع اللغة العربية بدمشق

نصف قرن مع عبد الرزاق قدورة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

نصفُ قرن مضى في صحبة الفقيد رحمه الله.

كان لقاؤنا الأول في قسم الفيزياء بكلية العلوم في الثكنة الحميدية في أيلول من سنة سبع وخمسين، بُعَيْدَ عودتي من الإيفاد، وكان المهندس محمد عبد الرزاق قدورة يستعد للسفر موفدًا إلى المملكة المتحدة لتحضير الدكتوراه. وكانت الغاية من اللقاء تَسَلُّمَ مكتبة القسم التي كانت في عهدته، والاطِّلاعَ على مضمون المواد التي كان يدرِّسها، ومناقشةَ ما يُمكن أن يُقتَرح من تعديلات عليها.

واسترعى انتباهي تكليفُه تدريسَ مادةٍ لا يرغب أحدٌ من أساتذتنا في تدريسها، وكنت قد أخذت في سنتي الأخيرة في فرنسا أستعد للقيام بهذه المهمة، بعد أن علمتُ أن الكلية لم تجدِّد عقد أستاذنا الدكتور إسحاق الحسيني، رحمه الله، الذي تولَّى تدريسها منذ تأسيس الكلية. وقد اتَّضَح من عَرض المهندس قدورة المنهاجَ الذي اتبعه أنّ أسباب النجاح متوفِّرةٌ له في تدريس هذه المادة التي يتحاشى الكثيرون الغَوْصَ في رمالها. فارتحت له. وكان مما يحبِّبُه إلى النفس ما يتمتع به من التواضع والبشاشة، وما يشعرك به من الودّ والاحترام.

كانت لقاءاتنا نادرةً في تلك الفترة القصيرة، إذ توزَّعته العنايةُ بشؤون الخطيبة التي كانت لا تزال تلميذةً في صف الشهادة الثانوية، وهمومُ السفر الذي سيبعده عنها إلى حين.

مرت أعوام أربعة تقريبًا قبل عودة المهندس قدورة من الإيفاد. كانت أحاديثنا في القسم في أثنائها تدور حول تطويرِ المناهج وإصلاحِ التعليم وإقلاعِ الجامعة بالبحث العلمي وموقعِ فلسفة العلوم وتاريخِها في التمكين لها جميعًا. وكنا إذا ما أرهقنا النقاش نستريح في واحة شعرٍ مع الدكتور أدهم السمان رحمه الله. فلما عاد الدكتور قدورة من الإيفاد وانضم إلينا من جديد أصبحت واحة الأمس واحاتٍ ينيعةً للشعر والتاريخ والفلسفة، وزادنا ألوانًا جديدةً في السياسة ومذاهبها في الشرق والغرب. وما إن ازدهر ذلك المنتدى العلمي الثقافي حتى غادرَنا الدكتور قدورة إلى كلية الهندسة التي أنشئت في أوائل الستينيات بمعونةٍ وتنسيقٍ من اليونسكو، فكانت اللغة الإنكليزية هي التي تجمع المدرسين المؤسسين على اختلاف لغاتهم القومية، وكان الدكتور المهندس قدورة خيرَ مَنْ يقوم بالتنسيق بينهم في كلية الهندسة، فهو مهندسٌ ويعرف إضافةً إلى إتقان الإنكليزية والفرنسية عدةَ لغاتٍ أجنبية كالألمانية والروسية على الأقل، فانقطع لمهمته الجديدة ولم نعد نلتقي إلاّ لمامًا.

ثم كان التغيّر السياسي الذي جرى في شباط سنة ١٩٦٦ والذي عُيِّنتُ على إثره نائبًا لوزير التربية لشؤون التعليم العالي، فأعادَنا الاهتمامُ بتطوير التعليم العالي إلى تكثيف لقاءاتنا وتوسيع منتدانا، وأخَذَت تتبدَّى لنا بعضُ طباعه وصفاته الشخصية التي كانت خافيةً، كالتشدّد في الحكم على ما تُبديه

نفسُه وقمع ما تشتهيه. فقُبَيل امتحانات حزيران نقل رئيس مجلس الوزراء رغبةَ القيادة بالسماح للطلاب الجامعيين السجناء، وجُلُّهم من قياديِّي اتحاد الطلاب السابق، بتقديم امتحاناتهم ولكن في سجنهم في القلعة. وحسمًا للاختلاف في الرأي حول جواز تقديم الامتحانات خارج القاعات المخصصة لها، دُعي مجلس الجامعة للانعقاد في جلسةٍ استثنائية. وكان الدكتور عبد الرزاق قدورة عميدُ كلية الهندسة عضوًا في المجلس وحضر الجلسة، ولكن ما إن طرح موضوع الطلاب السجناء حتى استأذن بالانسحاب وخرج فورًا لأن أخاه عبد القادر كان في عداد الطلاب السجناء، ولا يريد أن يؤثر حضورُه في آراء زملائه الأعضاء، كما يخشى أن تُخرِج العاطفةُ رأيَه عن جادة الصواب!

وزار المدير العام لليونسكو في تلك الأيام القُطرَ فكُلِّف الدكتور قدورة مرافقتَه، فترك في نفس الضيف الكبير أطيب الأثر، وبعد مدةٍ من عودته إلى مقر عمله في باريس ندَب الدكتور قدورة للقيام بمهمةٍ متعددة الأغراض في إفريقية دامت أكثر من شهر وأنهاها بتقريرٍ نال رضا المدير العام، وثبَّت ثقته فيه، كما ثبَّت العزم على ترشيحه فيما بعد لمنصب المدير العام المساعد للعلوم في اليونسكو. وقد باشر الدكتور قدورة عمله هذا في ولاية ذلك المدير العام نفسِه.

وتولى الدكتور قدورة قبل ذلك في عام ١٩٦٩ وكالة الجامعة عامًا واحدًا، تابع فيه تشجيعَه أعضاءَ هيئة التدريس على الترجمة. فقد كان يرى منذ بداية عمله في التعليم الجامعي ضرورة التوجُّه في التعليم العالي إلى الترجمة وليس إلى التأليف، وساهم في ترجمة العديد من المؤلفات الجامعية المرموقة من اللغتين الإنكليزية والفرنسية، وتابع نقلَ العلم إلى العربية بعد أن تحرر من مهام

اليونسكو، فترجم ونشر في مجلة عالم الذرة السورية، وفي مجلة العلوم الكويتية التي كان قد شجع على إصدارها ترجمةً لمجلة أمريكية معروفةٍ. وكان إيمانه بنهضةٍ علميةٍ تقوم على الترجمة يزداد رسوخًا كلما تقدم به العمر، فنادى في حفل استقباله في المجمع سنة (١٩٩٠) قائلًا: «... هل نرى يومًا قريبًا تُتَرجَم فيه الكتب العلمية الحديثة الصادرة باللغة الإنكليزية بسرعةٍ وإتقانٍ لتُعرَض في السوق الجامعية ... ليت قومًا من أصحاب الأموال يفطنون إلى ذلك، ويتحالفون مع أساتذة الجامعات العرب ليُنجزوا ما نتمناه...».

في عام تسعة وستين أُوفِدتُ إلى فرنسا، وأُوفِد الدكتور قدورة في نهاية ذلك العام أو في بدايات الذي يليه إلى المملكة المتحدة للاطِّلاع العلمي، واتفقنا على تكريس وقتنا في الوطن بعد العودة إليه للبحث العلمي، وعدم ممارسة الأعمال الإدارية. ولكننا عدنا في أوائل السبعينيات إلى الوطن وإلى العمل الإداري، فعُهِد إليّ بتأسيس مركز الدراسات والبحوث العلمية، وآزرني فيه بتسميته عضوًا في مجلس إدارة المركز، ثم سُمي رئيسًا لجامعة دمشق في عام ١٩٧٣، وآزره في إدارتها وكيلا الجامعة الدكتور إبراهيم حداد والدكتور محمد خير فارس رحمه الله ، وهما على مثل ما هو عليه من الأخلاق الكريمة وصدق العزيمة في العمل، وكانا من المعجبين به خلقًا وإدارة وعلمًا، كما أعجب هو بهما أيضًا، فنهضوا بالمهمة متحابّين.

كان لهم اجتماع صباحي يوميًّا يتدارسون فيه شؤون الجامعة ويتوزعون تنفيذ ما يقررون. رسموا معًا الخطوط الكبرى لبعض مشروعات الإصلاح الجامعي كمشروع التفرغ للعمل المهني، الذي كنّا نرى قَصْره في تصورنا الأوَّلي

على كليات العلوم التطبيقية ككلية الطب، فطُوِّر ليشمل جميع الكليات والمعاهد الجامعية.

كان الدكتور قدورة رحمه الله رؤوفًا بالطلاب حريصًا على تحسين إعدادهم للحياة علميًّا وأخلاقيًّا واجتماعيًّا. ذكر الدكتور إبراهيم حداد، أن طالبًا أساء التصرف في أثناء جولة للدكتور قدورة في إحدى باحات الجامعة فاحتجزه رجال الأمن، فلما بلغه نبأ احتجاز الطالب غضب وألحّ على الإفراج عنه فورًا، ولم يبت ليلته رخيّ البال إلا بعد أن أفرج عن الطالب واصطحبه بنفسه.

وفي حرب تشرين عام ١٩٧٣ لم يغادر الدكتور قدورة منشآت الجامعة طَوال مدة الحرب، واتَّخذ من مكتبه فيها غرفةَ عمليات ومقرًّا جهَّزه بسريرٍ من المستشفى يقضي فيه بعض ساعات النوم القليلة كل ليلة.

إلا أنه لم يُطِل المكوث في رئاسة الجامعة، فقد انتقل في عام ١٩٧٦ إلى باريس ليقوم هناك بمهام المدير العام المساعد لليونسكو للعلوم. واستمر في عمله هذا هناك حتى بلوغه سنّ الستين وإحالته على التقاعد.

وقد حظيت شخصيته الثقافية والعلمية الفذّة بمكانةٍ رفيعةٍ في الأوساط الثقافية الفرنسية والأوربية عامةً، ونشأت صداقات متينة بينه وبين بعض كبار الشخصيات كإدغار فور رئيس المجلس النيابي الفرنسي في تلك الأيام، والعالم الباكستاني البريطاني عبد السلام، حامل جائزة نوبل في الفيزياء. وفي الكلمة التي ألقاها عضو المجمع المهندس وجيه السمان رحمه الله سنة تسعين في حفل استقبال الدكتور قدورة، تعداد بعض أهم الدراسات التي قام بها والوظائف التي شغلها.

وبعد ذلك التاريخ، تاريخ إحالته على التقاعد، أخذ يتنقّل سنويًّا ما بين دمشق وباريس ولندن. يشدّه إلى دمشق موطِنه، الأهلُ وأصدقاءُ الطفولة والشباب ومجمع اللغة العربية. وفي لندن وما حولها أعز ماله في هذه الدنيا سامر وأم سامر. وفي باريس يعكف على تأمل الحياة كما عاشها وكما استعرضها في تجارب الآخرين. وباريس، على غير ما يُظَن، خير مكانٍ لاعتكاف الإنسان وانقطاعه إلى نفسه، يستخلص من معاني الحياة بعضها ويبني فلسفته. ألم يبنِ هيمنغواي بعضًا من فلسفته عن الحياة فيها، وأمثاله كثر. لقد تغيرت نظرة الدكتور قدورة إلى الحياة تدريجيًّا وباستمرار، واستطاع السيطرة على نفسه فأخفى مظاهر التغيرات المفاجئة فمرّت أمامنا، لا يشعر بها إلا الصديق المتتبّع عن قرب.

لن أُذَكِّر ببعض المحطات التي أدركتُها في مسيرة التغيرات العاصفة في حياته في باريس، ولكنني أكتفي بالتذكير بما أَلِفَه فيه كثرةٌ ممن يخالطونه، التذكير بلباسه الأزرق الداكن: بنطال وقميص قصير الكميّن يكاد لا يفارقه في فصول السنة كلها. لا يستعمل في تنقلاته ضمن المدينة وسائط النقل مهما كان الطقس مشمسًا شديد الحرارة أو ممطرًا وباردًا. لا تراه في الطرقات إلاّ مسرعًا مصطحبًا مجلة «نيتشر» الإنكليزية رافضًا كلَّ عرضٍ ممن يلمحه من المعارف والأصدقاء، لإيصاله إلى حيث يقصد. خصص أيامًا من الأسبوع يستقبل فيها زائريه ما بين السادسة والثامنة مساءً، ويزور في الأيام الأخرى منه أهله وأصدقاءه في نفس الأوقات تقريبًا، ينام بعد صلاة العشاء ويستيقظ باكرًا، وللرياضة في نظام حياته الراتب موقعُها ولأداء بعض الواجبات حقٌّ معلوم. وكأنني فهمت منه أنه يأكل مرة واحدة في اليوم ما بين الرابعة والرابعة

والنصف مساءً. ولذلك فإنه لا يلبي الدعوة إلى وليمة إلا نادرًا ولأسباب وجيهةٍ لديه، ولا يتناول في غير الموعد المحدّد شيئًا ولو كان قطرات من الماء.

كل ما في بيته يدل على الزهد والتقشف، مكتبه لوح من الفورميكا على قوائم معدنية تُطوى، نجد عليه كلمّا زرناه مجلّة نيتشر أو غيرها من المجلات العلمية، والقرآن الكريم أو كتابًا من الكتب التي درجنا على تسميتها الكتب الصفراء، لم أحاول معرفة ما يقرأ منها، ولم أسأله، ولم يحدثنا هو عمّا يقرأ. يستعين على القراءة في بعض الأحيان بمكبّرةٍ أو أكثر نجدها على مكتبه ذاك. وهو لا يقرأ إلا ما يدخل في مخطط قراءته الذي أقرَّه منذ سنوات. ذاكرته القوية هي مكتبته الثمينة المتنقلة الشديدة التنوع والاتساع.

وكان، رحمهُ الله، لا يُدخِل إليه تعويضات المجمع عن أعماله فيه ولا يمسّها، فكانت تُوزَّع على المعوزين من العاملين في المجمع، أما تعويض العضوية الشهري فكان يرفض التوقيع على جداوله الشهرية.

لم أشعر في العقدين الأخيرين بأنّه يطمع في شيءٍ من متاع الدنيا، وكأنه يردد الآية الكريمة: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

وهو مرهف الحسّ شديد الانفعال بما يخدش كرامته، لا ينسى الإساءة إليه ويتجنب المسيء ولا يسعى للانتقام. لم أسمع منه مذ عرفته حديثًا أشار فيه إلى نقيصةٍ في بعض من نعرف، ولكنّه ينصح بالابتعاد عن شخصٍ لا يرى في القرب منه خيرًا. وجُلُّ ما يمكن أن يقوله في شخصٍ أساء إليه، لا يعدو عباراتٍ شديدةَ التهذيب.

يُذكَر أن رئيس مجلس الوزراء دعاه مرة ليتفقد أحوالَه في علاقته بأحد الوزراء، فسأله عنه فأجاب: يا سيدي إنه رجل ذو أهواء، فقاطعه رئيس المجلس قائلًا هذا كلام يحكى في أكسفورد، أما هنا فقل عنه كذا وكذا...

وهو كريم وفيٌّ، كان يهدي إلى أصدقائه وهو في فرنسا، تأكيدًا لحضورهم الدائم في باله، ما يجدّ نشره من الكتب التي يقدّر اهتمام كل منهم بموضوعاتها. أما وفاؤه فقد أملى عليه الانتقالَ من كلية العلوم إلى كلية الهندسة تنفيذًا لرغبة أستاذٍ يجلّه ويحبُّه، هو أستاذنا وجيه القدسي رحمه الله، الذي قال عنه في حفل استقبال مجمعي: «أحَبُّ أساتذتي إليّ الوجيهان: القدسي والسمان» إنه الوفاء. وكان يولي تفقد أحوال أصدقائه عنايته ولاسيما في أوقات الشِّدَّة.

أما الحبّ فقد أصبح نعيم حياته، ولتستمع، لتدرك ذلك، إلى مناجاته لوحيده الدكتور سامر على الهاتف. إنه لايرفع سماعة الهاتف أبدًا إلا إذا رنّ جرسه رنّات اتُّفق عليها مع سامر وأمه فقط. سألته عما يفعل في لندن في النهار عندما يكون سامر في عمله في المستشفى، فقال أقضي وقتًا ممتعًا في غرفة سامر أكنسها وأتأمّل كل زاويةٍ وركنٍ فيها وما ترك عليها من أثر. هذا الحب، مع بُعد الشُّقة ودوران الأيام وديمومة التأمل والتفكير وقسوة ترويض النفس وتطهيرها من كل رجسٍ قد يخطر بها، يسمو به فيتجه إلى الله.

ولنتأمل ملامح هذا التطور في فاتحة كلمتين، إحداهما في حفل استقباله سنة تسعين إذ يقول: سيداتي سادتي، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما في حفل استقبالي بعد خمس سنوات فقال: بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. هذا هو الحب، تدرج به من

حبّ بعض ما في الدنيا إلى حُبِّ سامرٍ من زينتها، وأظنّه دخل في مرحلة السمو ليُخلص لله الحبَّ.

كنت كلما ودعته إثر زيارةٍ في مكتبي في المجمع أسعى لمُرافقته خطواتٍ خارج المكتب، كعادتي في وداع عزيز، فيأبى أن أرافقه، ويخرج مسرعًا كعادته، وأسعى خلفه مسرعًا أيضًا فأدركه وهو يقفز على الدرج مورّد الوجنتين كأنه في العشرين من العمر، وأتأمّله بهدوء، وأناجي نفسي والرضا يغمرني هذا هو الذي استقبلني في المجمع، وهو الذي سيودعني أيضًا يوم الرحيل.

رحم الله أبا سامر لقد فقدناه، وتلك مشيئة الله، ولكنني فقدت بفقده آخر صديق لي من أبناء جيلي في كلية العلوم، وهذا هو اليتم عاد إلينا في آخر العُمر.

* * * * *

كلمة الأستاذ عبد القادر قدورة

أيها الحضور الكريم

اسمحوا لي بادِئ ذي بدء أن أذكر ما قاله الكاتب العربي الكبير الطيب صالح في وصفه لفقيدنا قبل أكثر من عقد:

«ورِعٌ بلا تكلف، صافي الذهن، يملك قدرة هائلة على التعلم، وجهه يشع بضوء القرآن وحركاته وسكناته وأسلوبه في العيش كأنها أصداء لآيات القرآن المبين. رجل فذ بكل معاني الكلمة يذكِّر بعلماء المسلمين في عصور التنوير الأولى».

أيها الحبيب..

في ذلك اليوم عندما أدرتَ ظهرك وآثرت الرحيل... عندما اخترتَ أن تمضي مودِّعًا كل من أحبك إلى غير لقاء.

في ذلك اليوم... يوم جمعتَنا لتُلقيَ علينا نظرتَك الأخيرة... ولتهديَنا ابتسامتك الدافئة للمرة الأخيرة.

في ذلك اليوم... حينما فتحتَ لنا باب منزلِك واستقبلتنا كما تستقبلُ الأم أطفالها بمطرٍ من الحبِ والدفء والحنان.

في ذلك اليوم... عندما زرتنا في دارنا فصحِبت معك كل فرح العالم وحملت في جعبتك لكلٍّ منا شيئًا ما كان ينتظره بفارغ الصبر.

في ذلك اليوم... عندما حملتَ كُرسيك الخشبي وجلست بقربي وأنا أصارع المرض... فهزمتُه بك وقهرتُه بعزيمتك، واستعرت من صبرك ما حملني عليه.

في ذلك اليوم... عندما كنت ترسلُ لي من راتبك الدراسي ما أستعين به على شظف العيش وقسوة الحياة.

تذكرت هذا كله في ذلك اليوم.

أيها الحبيب...

يا من سكَنني... وغمرني

يا من مسحتْ يداه جراح اليتم بداخلي.

يا من كنتَ الأم والأب والأخ والحبيب والصديق.

كيف رحلت في ذلك اليوم ؟

في ذلك اليوم...

عندما كنتَ مريضًا، فأخفيتَ عنّا ما كان يؤلُمك ويؤرِّقك وتجشّمت عناء المكابرة، وتحملت وطأة الألم وحيدًا... كما يليق بك، صابرًا محتسبًا.. كما يليق بك، شامخًا قويًا.. كما يليق بك.

أيها الحبيب...

كيف لي أن أقوى على الانتظار.

كيف لي أن أجمع نفسي بعد أن هدمها رحيلك.

من أين لي بصبرٍ يكون بحجم الحزن الذي خلَّفتَه وراءك.

أيُّ يدٍ تُرى ستحمل رائحة يديك.

وأيُّ صوتٍ ذلك الذي سيحمل دفء صوتك.

وأيُّ عينٍ تلك التي سأرى بها عيون الأحبة الذين فارقوني.. غير عينيك.

وأيُّ يومٍ سأنتظر فيه مجيئك... يا من لن تأتي أبدًا.

أيها الحبيب...

في ذلك اليوم... حينما ذهبنا بك إلى المستشفى ودخلت غرفة العناية الفائقة، كنا نقف خارجًا ننتظرك أن تفتح عينيك وأن تخرج إلينا.

كان حُبنا لك أكبر من خوفنا عليك، كان الأمل بداخلنا قادرًا على أن يبدد كل غيوم الشك الرهيبة.

كنّا ننتظرُك بنفس اللهفة التي كانت تسبق مجيئك إلينا.

كان كل واحدٍ منا يريد أن يرمي نفسه بين ذراعيك ويُقبلك كما اعتاد أن يفعل في كل مرة كان يلقاك.

لكنك لم تفتح عينيك.. ولم تخرج إلينا أبدًا.

أيها الحبيب...

في ذلك اليوم... عندما أدرتَ ظهرك وآثرت الرحيل... تذكرتُ ما كنتَ قد كتبتَه في سالف الأيام وأنت تتذكرُ الأحبة الذين فارقوك:

وشيخًا كان يرعانا صغارًا ووالدَنا العطوفَ المستطيعا

أحن إلى سجاياهم فأبكي وأدعو أن ألاقيهم سريعا

فكان في ذلك العزاء لفقدك، والصبر على حياةٍ لن تكون فيها... فأنت اليوم عائدٌ إلى الأحبة... عائدٌ إلى أبينا وأُمِنا وخالِنا الشيخ. فلتهنأ أيُّها الحبيب، فلطالما اشتقتَ إليهم ولطالما أردت أن ترتمي في أحضان أُمنا التي فارقتنا منذ أكثر من سبعين عامًا.

دعاكَ فلبيتَ الكريمَ الداعيَ كعهدِكَ مرتاحَ السريرةِ راضيا

وما كربَ إلا كُنتَ فارجَ أهلِه فلمَّا أتاكَ الكربُ كُنتَ.. مُداريا

ولا ســـائلًا يومًـــا رَدَدْتَ ســـؤالهُ ولا لِنـتَ في قصـدٍ إذا سِرتَ راجيـا
ولكـنْ أتـاكَ اليـومَ أمـرٌ إذا اعـترى فدونـهُ كـلُ الخلـقِ صِرنَ سواسـيا
ومـــا كنـــتَ إلا للمعـــالي مســـافرًا ومـــا كنـــتَ إلا للمكـــارِمِ صـــاديا
وقد يُرتجى هـديُ النجـومِ إذا بَـدَتْ ويَسْتهدِكَ الـنجمُ الـذي كـان هاديـا
قسـوتَ إذا غـادرتَ أهـلًا وصـحبة ولم تـكُ يومًـا، مـذ عرفتـكَ، قاسـيا
عليـكَ سـلامُ الله مـا أنـتَ أهلـهُ وحسـبُكَ أن خلَّفـتَ ذكـرك باقيـا

وأخيرًا..

أيها الحضور الكريم

الشكر موصول بكامله إلى السيد رئيس الجمهورية الذي كرَّم الفقيد بحياته بمنحه وسام الجمهورية من الدرجة الممتازة، والشكر لسيادته لعزائه الكريم لأسرتنا الذي مكننا من تحمل مصابنا الجلل.

والشكر موصول لوزارة التعليم العالي ممثلة بسيادة الوزير الدكتور غياث بركات.

والشكر موصول لجامعة دمشق رئيسًا وأساتذةً وطلابًا.

والشكر موصول لمجمع اللغة العربية رئيسًا وأعضاء.

والشكر موصول لكم أنتم أيها الحضور الكريم ولكل من ساهم وشارك في حفل التأبين هذا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

* * * * *